

# مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

|             |    |                |                   |
|-------------|----|----------------|-------------------|
| الجزء الأول | ٢١ | الحرم سنة ١٣٦١ | المجلد الثالث عشر |
|-------------|----|----------------|-------------------|

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فؤاد عبد الباقي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عمدة سنة

داخل القطر ... .. ٢٠٠

لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠

خارج القطر ... .. ٣٠٠

نمن الجزء الواحد ٢٠ ملياً داخل القطر و ٣٠ خارج

( مطبعة الأزهر — ١٩٤٢ )

فهرس

الجزء الأول - المجلد الثالث عشر

| صفحة |                                       |      |                                      |
|------|---------------------------------------|------|--------------------------------------|
| ٣    | حضرة الأستاذ مدير المجلة              | بقلم | فاتحة السنة الثالثة عشرة ... ..      |
| ٤    | حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر      | »    | تفسير سورة لقمان ... ..              |
| ١٢   | حضرة الأستاذ مدير المجلة              | »    | كيف نحافظ على الدين في هذا العصر ؟   |
| ٢٠   | فضيلة الأستاذ الشيخ صادق عرجون        | »    | عثمان بن عفان ... ..                 |
| ٢٤   | حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب        | »    | النصوف والمتصوفون ... ..             |
| ٢٨   | فضيلة الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى    | »    | بين رجال الدين والفلسفة ... ..       |
| ٣٣   | لجنة الفتوى                           | »    | في الوقف - فتوى ... ..               |
| ٣٥   | حضرة الأستاذ مصطفى عبد الحيد          | »    | مقارنة ومفاضلة ... ..                |
| ٣٩   | ابراهيم زكي                           | »    | زيادة عدد سكان العالم وآثارها ... .. |
| ٤٣   | محمد ناصف                             | »    | مذاهب العرب في كلامهم ... ..         |
| ٤٦   | أمين حمدي فرج                         | »    | مهرجان أدبي ... ..                   |
| ٤٧   | فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرائي | »    | رجلان ... ..                         |

# احتفال الجامع الأزهر بآول السنة الهجرية

الاستاذ الإمام بخطب فيه وصاحب الجلالة الملك يشرفه

احتفل الأزهر ، جريا على عادته ، بالسنة الهجرية الجديدة في مساء يوم الأحد أول المحرم لسنة ١٣٦١ ، خفل المسجد برجال الدولة والعلماء وكبار الموظفين وطلاب العلم ، وما وافقت الساعة الرابعة حتى كان حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول في مكانه الرفيع من محل الاحتفال . وما هي إلا هنيهة حتى اعتلى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى منصة المنبر وألقى خطبة افتتحها بتوجيه الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك من فضيلته تجديد خطابيا أعاد للأسماع والقلوب ، مع ما كان لبديع بيانه ، وما للمواضيع التي ألم بها ، وما وجهه الى حضرة صاحب الجلالة من الترحيب والرجاء ، من التأثير ما ليس لأبرع الكتاب قدرة على توفيقه حقه من الإكبار والإعجاب والتقدير .

وهنا نرى حقا علينا أن ندوه بما وفق الله إليه حضرة صاحب الجلالة من إعادة محل سمي في إعزاز الاسلام وإعلاء كلمته ، بما سنه من وجوب احتفال الحكومة بالسنة الهجرية رسميا ، فجاء هذا العيد في جلاله ونخامته هذا العام ، مذكرا بما كان له في سالف الزمان ، أدام الله جلالاته مجددا لما اندثر من تقاليد المسلمين الأولين ، معيدا من مجدهم التالذ ، وعزيم المنيع ، ما كاد يطويه تطاول السنين .

فإلى القارئ الكرام نص الخطاب التي ألقاها فضيلة الاستاذ الإمام أيده الله :

سيدى رسول الله محمد بن عبد الله :

عليك من ربك صلوات وتحيات ، بقدر ما أخلصت له ، وفنيت في الدعوة اليه ، وبقدر ما نأجبت عن الحق واحتملت في سبيله ، من إيذاء وعنت ، وجهد ومشقة .

مبرك الله بفطرة سليمة نقية ، طاهرة مؤمنة ، ومنحك روحا طاليا طار الى الملا الأعلى ، وشاهد نور الحق ، ونفذ الى جمال الوجود وأسراره ، وأدرك أن هذه الحياة الدنيا إذا خلت من الإيمان والطهر ، ومن الحق والعدل ، وخلت من الاتصال بالله ومن الاستسلام له ، كانت حياة البهائم والأنعام ، لا حياة الأبرار والصالحين .

نشأت في الطهر والصفاء ، فمفت الأوثان ، وعزفت تمسك عن حياة اللهو والغرور ، في الوسط الذي نشأت فيه ، فلم تعبد وثنا ، ولم تقترف إثما ، ولم تستمتع بما استمتع به لذاتك ،

من لذة وشهوة ، ورضت نفسك على المعالي ، وعلى ما فيك من خلق كريم طاهر ، فكنت وديعا كريما ، وكنت شجاعا مقداما ، وكنت برا رحيا ، وكنت قويا صارما ، وكنت عفيفا ، وكنت أرضى الخلق لله ، وأرضى الناس للناس في الله ، وفي الحق ، وكنت مع هذا كله حكيما ، تضع كل شيء موضعه ، وتدبر لكل غاية وسيلتها ، وتحكم لكل شيء أسبابه .

اختارك الله جل شأنه لرسالته ، واصطفاك لأمانته وحيه ، فصدعت بالامر ، واحتملت العبء ، وصبرت وصابت ، واحتملت من الأذى ما لا يطيقه إلا أولو العزم ، وتألب عليك الناس ، وتألب أهلك وعشيرتك ، يريدون إطفاء نور الله ، ويريدون القضاء عليك ، وقتل الدين في مهده ، فلم تجد بدا بعد أن أخرجت ، من القرار بدينك ، ومن مفارقة أهلك ووطنك ، فهاجرت لله ، وفي سبيل الله ، والهجرة سنة المرسلين ، وملاذ المستضعفين ، فرضت على كل مضطهد في عقيدته ودينه ، ووعد الله بالأجر عليها ، وبالعقاب على تركها :

«إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، قالوا فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراعما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيا .

سيدى رسول الله :

مركز تحقيقات كامپيوتر علوم اسلامی

كانت هجرتك حدا فاصلا بين الذلة والعزة ، وبين الضعف والقوة . خرجت بها من دار غف من جوها بالشرك والضلال ، وفسد هواؤها بالجور والظلم ، والكفر والفجور ، إلى دار يعبق فيها عطر الحرية ، ويملأ جوها نسيم التوحيد والظهر وذكر الله ، ووجدت بيئة صالحة تلقى فيها التعاليم الإلهية ، والنظم القدسية ، وترتل الكتاب ، وتعد العدة لنشره على الناس ، فوضعت سياستك الحكيمة لإصلاح الأمم ، وتقويم الخلق ، ورفعهم إلى المستوى الذى أحبيته ، واطمأنت إليه نفسك ، ورضيه الله للعباد .

لهذا اختار المسلمون يوم الهجرة ، وجعلوه مبدأ التاريخ . فهو رمز إلى ما احتملته في سبيل الله ، ورمز إلى انتصار الحق على الباطل ، ومذكر بمبدأ العزة للمسلمين .

من الحق أن نحتفل بالهجرة ، لكن من الحق أن نحتفل بها على الطريقة التى ترضاها : نقس مبادئك ، ونقدس دينك ، ونسير على ما رضىته من خلق قويم ، ونتبع طريقك فى الإصلاح ، وطريقك فى إقامة العدل ، وحب الحق ، وحب البر . وليس يكفى أن تلقى الخطب ، أن تنشأ القصائد ، ثم لا تكون هناك عبرة وغظة ، ولا يكون هناك سعى للإصلاح .

(ج)

مولاي صاحب الجلالة :

دورة من دورات الفلك تقضت ، فاذا بنا في عام جديد من أعوام الهجرة ، نحتفل به اليوم كما احتفلنا بأخيه بالأمس ، ونرجو أن يكون ميمون النقيبة ، مبارك الطلعة ، يداوي جراحات الماضي ، ويأسو العباد .

ولقد كانت آمالنا معقودة على أن الله سبحانه ، سيلطف بعباده ، ويرفع عنهم غضبه ونقمته ، وينظر إليهم برحمته ، ويريحهم من ويلات الحرب وشرها ، وكرها وغمها . لكن العام لم ينقض إلا ونيران الحرب تندلع من الغرب الى أقصى الشرق ، وتشترك فيها أكثر الأمم . سبحانه اللهم لا راد لقضائك ، ولا معقب لحكمك ، نسألك أن تطف بعبادك ، وأن تردم الى الرشد ، وتسوقهم الى الهدى السماوي ، وأن توفق القادرين منهم الى البصر بالعقبى ، لتنجو الأمم من الدمار ، وينجو العالم من هذا الكرب .

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه ، وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

أصبنا بنكبات من تلك المحنة ، وكان لطف الله عظيما ، وأصبنا بغلاء الأقوات وغلاء الحاجيات ، ونخشى أن يكون ذلك عقابا من الله سبحانه ، على عدم العبرة ، وعلى البعد عن الله ، ومحافة التقاليد الاسلامية ، والنظم الإلهية في الحياة الاجتماعية ، والله سبحانه يقول :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

ما فرط الله في كتابه من شيء فيه سعادة الانسان في دنياه وأخراه . وقد أكثر الله من ضرب الامثال ومن قصص الاولين ، أعادها وكررها على أساليب شتى ، في عدة من سور القرآن . فمن قصة نوح وقومه ، وإبراهيم وقومه ، وعاد وثمود ، وقوم موسى ، الى غير ذلك من أخبار الأمم ، ضرب الله هذه الامثال ، وصرّفا للناس للعظة والاعتبار لا للتاريخ . كل ذلك ليحذر الناس الوقوع في الآثام التي وقعت الأمم فيها من قبل ، وكانت سببا في عقابها ، من غرق وخسف ، وريح صرصر عاتية ، الى غير ذلك من أنواع العقاب .

وحذر الله عباده ما هو أشد فقال جل شأنه : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

وقد أنزل الله هذا العقاب على عباده ، فمذهبهم من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، وفرقهم شيعا ، وأذاق بعضهم بأس بعض ، حتى صرنا نخشى أن يتداعى صرح المدينة والفضيلة ،

(د)

وحتى أصبح كل ما ورثه هذا الجيل من علم وخلق ومعرفة وتقاليده ، معلقا في ميزان القدر ، وقد تذرره الرياح فلا يبقى شيء منه ، كما عصفت الحوادث من قبل بمذنبات لم يبق منها لا لأطلال .

تلك العبر والامثال التي صرفها الله في القرآن ، وهذه العبر الماثلة أمام الأعين ، تستدعي مزيد الانتباه ، وشدة اليقظة ، وإعداد العدة للسير بالامة الى طريق النجاة من الهلاك ومن عذاب الله .

هذه الفكرة مخترعة الآن في كل الأوساط لا في الأوساط الدينية وحدها ، بل في الجمعيات المتعددة ، والجماعات المختلفة ، ولدى الأفراد ، الذين يفكرون ويعقلون ، وكلهم يرقب يوما تسطر فيه على البلاد حياة اجتماعية صالحة ، ترفرف عليها راية القرآن ، ويظلها هدى السنة وسيرة السلف من خيار الامة ، وترد الناس الى قواعد الاسلام وتقاليده الطاهرة ، والى تقاليد الشرق الذي ظهرت فيه جميع الأديان .  
مولاي :

هذا ما يوحيه الاحتفال بالهجرة النبوية الطاهرة ، ونوحيه سيرة صاحب الهجرة ، صلوات الله وسلامه عليه . وليس أحد غيرك يستطيع إصلاح هذه الحياة ، في هودة ورفق وحكمة ، فبيدك وازع السلطان ، وأنت القدوة . فسر بالعالم الاسلامي في الطريق السوي ، وضع أمامك مصباح القرآن ، وابدأ تاريخا جديدا في حياة الامة ، وسيتبعك الناس ، ويسرون خلفك ، ويحمدون طريقك ، ويولونك الثناء كله ، والحمد كله .

مولاي :

عرف الشعب كله أن قلبك معه ، وأنتك توليه عطفك وحبك ، وتمنحه رفدك ، وأنتك وقت الأزمات مفرج كربه ، وكاشف ضره ، وبأذن مالك في سبيل إسماده . فلك من الله حسن الجزاء ، ولك من الشعب خالص الحب والولاء .

والشعب يطلب المزيد من الرعاية والعناية ، ليصل الضعيف الى حقه من غير عناء ، ويشعر القوى بأن عليه رقبيا يمنعه من الطغيان ، ولينال كل واحد من رعبتك قسطه من العدل ، وقسطه من الرحمة ، وقسطه من العقاب ، إن كان يستحق العقاب .

أقدم لمولاي جلالة المليك المحبوب ، باسم الأزهر علمائه وطلبته ، خالص الشكر على تفضله بتشريف حفلة العام الهجري . وأقدم لجلالته خالص التهنية ، ضارعا الى الله سبحانه أن يحفظه حصنا للبلاد ، وموثلا للفقراء ، مؤيدا بنصره ، ملحوظا بعونه وتوقيه .

وتهنئي الخالصة الى جميع المسلمين والمؤمنين . والسلام عليكم ورحمة الله

## فاتحة السنة الثالثة عشرة

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمد معترف بسوانح نعمه ، مفتقر الى المزيد من عوارف كرمه ، وأصلى وأسلم على خاتم رسله ، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

أما بعد فإننا نفتتح بهذا العدد من مجلة الأزهر مجلدها الثالث عشر ، راجين من الله توفيقاً وتسديداً ، وعونا على خدمة الحقيقة وتأبيداً ، فإننا مهما بذلنا من جهودنا ، وأتقنا من أوقاتنا ، فما زلنا نحس بالنقص عما يجب أن نكون عليه ، شعوراً منا بأن الغاية التي نسعى لبلوغها تستدعي أن نستثير لها كل ما كُن في طبيعتنا من قوة وجلد وثبات ، وأن من سبقونا من خدام الحقائق الكبرى كانوا أكثر منا دءوباً ، وأجلد على الشدائد قلوباً . وإننا بوضعنا مثلهم الأعلى نصب أعيننا زداد بهم تأسيماً ، ونستريد لطريقتهم تحدياً .

أسست هذه المجلة لتكون صلة روحية بين الجامعة الأزهرية ومسلمي الأرض الذين يعتبرونها كعبة العلم الديني ، ومدرسة الهدى الحمدي ، وقد قامت بعهد اليها من الاضطلاع بهذه المهمة ، فكان لها بفضل الله وتسديده ، الآثار الحمودة في العقول والقلوب ، والنتائج القيمة في الاخلاق والمعادات ؛ فإذا كان الأمر يحتاج للمزيد ، فكيفها شرفاً أنها وفّت بما تعهدت به أمام الله والناس ، من الخدمة الصادقة ، والعزيمة الماضية ؛ ولست بما أقول أنه بجهد بذلته ، أو أسلوب بديع انتهجته ، ولكن بنية صالحة استبطنتها ، وتعزيد عظيم خصصت به من لدن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر ، زاده الله قوة وتوفيقاً على أداء مهمته التي تنوء بها العصبة أولو القوة ، وأقدره على بلوغ أقصى ما يتمناه للاسلام من الظهور والتجلى .

ولا أستطيع أن أغفل التنويه بذكر حضرات العلماء والكتاب الكرام الذين تفضلوا بإمداد هذه المجلة بكتاباتهم القيمة ، فإن مدين لهم بشكر عظيم ، جزاهم الله عن العلم خيراً . وإذا كان لنا أن نذكر الاسباب القريبة منا لهذه النهضة المباركة ، فإن من ورائها روحاً عليها نعمة بالوجود والمنارة ، وتتمهدها من شآبيب فضلها بأسباب البقاء والاستمرار ، هي روح صاحب الجلالة الملك فاروق الاول ، الذي أصبح كل عامل في هذه البلاد يشعر بنصيب موفور من قواه المعنوية ، تدمه فيما هو بصده ، وتنير عليه السبيل في عمله ، لا زالت دولته قوية الدائم ، ركنية الأركان ، ولا زالت حياته مصدر حياة وسعادة لشعبه المخلص له ، الوفي بعهده . وإننا قبل أن نختم هذه الفاتحة نرجو الله أن يلهنا الصواب فيما نحن بسبيله ، وأن يعيننا

# نفس سورة الفصحات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي

شيخ الجامع الأزهر

- ٢ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَانَ فِي أذْنِهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » :

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السابقة أن آيات القرآن الكريم فيها هداية وفيها رحمة وإنعام للمحسنين ، وبعد أن بين أمثلة لأصول الفضائل التي يتصف بها المحسنون ، ذكر في هذه الآيات أن طائفة من الناس يتركون آيات الله ويعرضون عنها ، ويسخرون من الطريق المستقيم الذي هو طريق الله وسبيله ، ويقبلون على الباطل الذي يلهي عن الحق ، ويختارونه ، وإذا تليت عليهم آيات الله ولَّوْا عنها مستكبرين لا يعبئون بها ولا يرفعون رءوسهم عند سماعها زهدا فيها واستكبارا ، فكأنهم لم يسمعوها ، بل كأن في آذانهم ثقلا لا يستطيعون معه سماعها .

سبيل الله : هو الحق الثابت في ذاته ، الحق الذي تدركه العقول الصحيحة والفطر السليمة . والدلائل قائمة عليه ، والناس ممنكون منه ، وكأنه في أيديهم وملك لهم ؛ وفضلا عن ذلك فإن الله سبحانه لم يترك عباده لهذه الهداية العقلية والإلهام الفطري ، بل أكمل نعمته وأتم رحمته ، وأرسل الرسل تترى مبشرين ومنذرين ، ينهون الغافل ، ويحذرون الجأمة ، ويضيئون بصيرة من انطقت أنوارهم ، ويرققون شعور من غلظت مشاعرهم .

مع هذه الهدايات جميعها فإن من الناس من يتركها ، ويختار الباطل ليضل عن سبيل الله .

# مكتبتنا العربية

## سورة لقمان

هؤلاء تركوا ما بأيديهم وباعوه ، واختاروا الباطل واشتروه ، وهم جاهلون بما يعود عليهم من الأثم والضرر ، وبما فاتهم من السعادة والنفع ؛ وهم جاهلون بقوانين البيع والشراء وأصول الربح في التجارة . ونظير ذلك قوله سبحانه : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

الناس بعد دعوة الرسل أقسام : منهم من يعرف الحق ويجحده عنادا واستكبارا ، ويختار الباطل ليضل عن سبيل الله .

ومنهم من لم يعط الدعوة حقها من النظر والعناية ، اعتمادا على تقليد ما كان عليه الآباء ، واستمرء لما كان عليه الناس من شهوات ؛ فزق من الخير ، وقبينة تغنى ، وقصائد من الشعر تنشد ، خير من الآيات والتقييد بالحدود . وسبيل هذا غير بعيد عن سبيل القسم الأول .

من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالا وبرسالة محمد ، ويمظهما ويحملهما ، فإذا قلت له : لم لا تقطع يد السارق وتحذ القاذف ، ولم لا تحكم القرآن في الحياة ونحن مؤمنون به ؟ هز كتفيه وابتسم ، أو زاد : إنها رجعية لا يحتملها تعدين العصر الحديث ! أليس هذا استهزاء بالآيات ، واشتراء للباطل ، وضلالا عن سبيل الله !

هناك مقلدون للمذاهب في العقائد والأحكام ، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبهم ولوا عنها ، وإن كانوا لا يسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها . أليس هذا شراء للباطل ، وبيعا للحق بغير علم ؟

هناك مذاهب ابتدعت في الدين للضلال والاضلال ، بسبب السياسة ، وقصر مبتدعوها الآيات في التأويل ليردوها الى مذاهبهم المبتدعة ، وجاء أتباعهم فقلدوهم .

أما المبتدعون فهؤلاء أمرهم واضح : اشتروا الضلالة بالهدى ، وأما الأتباع فكان عليهم أن ينظروا في الآيات ويتدبروها ، عملا بقوله سبحانه : « فإن تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » . فهم أيضا اشتروا الضلالة بالهدى ، ولهم بعض العذر .

هناك طوائف لم تبلغها الدعوة ؛ ومن هذه الطوائف من سمع برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يطلع على كتابه ولم يدعه أحد الى كتابه ؛ هؤلاء لا تنطبق الآية عليهم .

وهناك أناس بلغتهم الدعوة ، وبلغهم الكتاب ، وأخذوا في النظر والاعتبار ، ولم يصلوا الى شئ بعد الجهد والإيناف . هؤلاء أمرهم الى الله . والرأى عندي أنه أرحم من أن يعذبهم من الضلال ضلال بعيد : هو الضلال في العقائد ؛ ومنه ضلال غير بعيد هو الضلال في غيرها . وأهم أنواع هذا الضلال ترك الاعتبار والاستنبصار بالقرون الخالية والام الماضية ، وترك التدبر في صنع الله ، والانتفاع بما أودعه الله في ملكه لمنفعة الانسان .

هؤلاء الذين اشتروا لهُو الحديث ، لهم عذاب مهين ، مذلٌّ مخزٍ ؛ وقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يبشرهم بالعذاب الاليم . والبشارة بالعذاب جرت مجرى السخرية والتهكم لأنها لا تكون إلا بأمر سار مفرح . وكأن الله يقول : هؤلاء ليس لهم عندى شئ أبشرهم به ، وإن طلبوا البشارة فبشارتهم هى العذاب الاليم .

مثل هذه الإنذارات تتحقق فى الآخرة حتماً بالنسبة للأفراد وللأُمم .

أما فى الدنيا فقد تتحقق فى الأفراد وقد لا تتحقق ؛ لكنها بالنسبة للأُمم دائمة التحقيق . ولم تنج أمة قط من عقاب الله فى الدنيا إذا أعرضت عن سبيل الحق واسترسلت فى الشهوات . والتاريخ شاهد صدق ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ . خَالِدِينَ فِيهَا ، وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » :

جنت النعيم : هى دار الأبرار والمحسنين فى النشأة الآخرة ، كما أن النار دار الفجار والضالين . تؤمن بهما كما تؤمن بالبعث والحساب والجزاء ، لا تزيد فى ذلك كله شيئاً عما فى كتاب الله وسنة النبى التى رويت بالطريق المأمون .  
والخلود : المكث الطويل . واستعمل فى لغة القرآن فى الدوام الأبدى . فالجنة لا تزول ، وهم لا يخرجون منها .

لم يذكر الله سبحانه ما آمنوا به ، ولم يذكر ما هى الصالحات ، فكل ذلك كان معروفاً عند المخاطبين ، ومعروفاً الآن ، وهو مبين أكمل بيان فى آيات القرآن ، منشور فى جميع سورته .

وهذا الجزاء وعده الله سبحانه وعداً حقاً ، وهو منجز وعده ، ومنجز وعيده ، لا يعوقه شئ عن ذلك ، لأنه العزيز الغالب القاهر ، لا يُغلب ولا يقهر ، وهو الحكيم الذى يضع الأشياء مواضعها ، ويوجد كل شئ وفقاً للنظام الذى قدره طبقاً لعلفه الواسع .

والعمل الصالح : عمل الشخص نفسه لا عمل غيره . ومن قضايا الدين العامة : « أن لا تزور وزارة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى » . وقد قيل لنوح فى ولده : « إنه ليس من أهلِكَ إنه عمل غير صالح » . فلا يجوز أن يشكّل أتباع الأنبياء وأتباع الأولياء وذرائعهم عليهم ويلقوا ربهم بعمل غير صالح .

والجزاء يقع على الإيمان والعمل الصالح ، لا على الإيمان وحده ؛ والآيات شاهدة بذلك . والعمل الصالح يقرن دائماً بالإيمان عند الوعد بالجزاء .

# مكتبتنا العربية

## سورة لقمان

٧

«خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» :

الخلق : التقدير المستقيم . وقد استعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء . وسماء كل شيء أعلاه . ومجموع ما نراه فوق رؤوسنا من كواكب ونجوم وسدائم هو السموات . والعمود معروف ، جمعه عمود وعمود . والرواسي : هي الجبال النابتات في الأرض ، الغائرات في الأحماق . ويقال الزوج لكل واحد من القرينين : الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة ، فالذكر زوج ، والأنثى زوج . ويقال أيضا لكل قرينين في الحيوانات وغيرها .

هذه الآيات وأمثالها من الآيات المتعلقة بالكون ، هي التي يعتمد عليها القرآن دائما في الاستدلال على الخالق ، وقدرته ، وعلمه ، وتفرد به بالإيجاد ، واستحقاقه للعبادة . وفي الحق أنه لا يوجد شيء غيرها يمكن أن يقنع . وإذا انحرفت الأدلة عنها أفلت وأظلمت البصائر . وكل ما في كتب الكلام والفلسفة لا يمكن أن يهتدى به جمهور المسلمين ، ونحن في شك من أن العلماء اهتدوا به .

وفد على أبي حنيفة جماعة من الدهرية ، فقال لهم : ما تقولون في خشب قطع من الأشجار بلانجار وتجمع فكون سفينة جرت في البحر مشحونة بالأحمال وقد احتوتها في لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهي من بين ذلك كله تجري على استواء من غير ملاح يجريها ولا متمهد يدفعها ، أيجوز ذلك عندكم في العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل ، قال أبو حنيفة : سبحان الله ، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير ملاح ، فكيف يجوز في العقل قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها من غير حافظ ولا صانع ؟ قالوا : صدقت .

وقال رجل من علماء الغرب : الله منظم الكون ، والكون تأليفه ، فما أجبل الناس حيث يثنون عليه وهم عن عجائبه معرضون ! إن دراسة الكون عبادة صامنة ، وتسبيح عملي ، وعلم الكون يعلمنا أن الكون جميعه مرتبط بناموس لا يتعداه ، وأن نظامه البديع يدل على قوة وإرادة وحكمة أبدعته وسوّته ، والعلم يهدينا إلى الحدود التي لا نستطيع تجاوزها ، ويرينا أننا عاجزون عن إدراك حقيقة كنه الله . انتهى حديثه .

هذا الوجود هو كتاب الله الذي لا تنتهي كلماته ، ولو كانت البحار مدادا لكلماته لنفدت قبل أن تنفذ كلماته .

وفهم كتاب الوجود هو السبيل الوحيد لإدراك عظمة الخالق وسعة علمه ، ورحمته وحكمته .

ولقد كانت جهالات أهل الدين قوية ، حين رأوا الانصراف عنه . لقد جنوا جناية لا حد لها على الاسلام والمسلمين . ولقد ورثت الأجيال المتأخرة عنهم آثار هذه الجناية . وبعيد أن يغفر الله أمثال هذه الزلات .

« خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ مَعْدٍ تَرَوْنَهَا » :

السموات : مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم . وهي مرتبة بعضها فوق بعض ، تطوف دائرة في الفضاء ، كل شيء منها في مكانه المقدر له بالناموس الإلهي ونظام الجاذبية ؛ ولا يمكن أن يكون لها عمد تعتمد عليها ، والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها .

فاذا قيل إن نظام الجاذبية وهذا الناموس الإلهي قائم مقام العمد ، ويطلق عليه اسم العمد ، جاز أن نقول إن لها عمداً غير منظورة . وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شيء مادي تعتمد عليه ، وجب أن نقول إنه لا عمد لها .

وأقذار الأجرام السماوية وأوزانها ، أقذار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها . والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ، ليست إلا هباءة دقيقة في الفضاء .

وليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات ومادته وأبعاده وأقذاره وأوزانه ، لكنه يجب أن يُلمَّ بطرف يسير منه ليبدل به على القدرة الإلهية ، ويشير إليه للعظة والاعتبار .

قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها ؛ وقرر الكتاب الكريم أن الله « استوى إلى السماء وهي دخان » ؛ وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم . وقد قال العلماء : إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار ، تكسرت وصارت قطعاً ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها ، والأرض واحد من هذه السيارات ، فهي بنت الشمس ، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات .

فليست الأرض هي مركز العالم كما ظنه الأقدمون ، بل الشمس هي مركز هذه المجموعة . والشمس وتوابعها قرى صغيرة في العالم السماوي . وأين هي من الشعري اليمانية التي قال الله سبحانه فيها : « وأنه هو رب الشعري » ؟ فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء ، تساوى قدرة الشمس ٢٦ مرة ، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء . فلو فرض أن الشعري اليمانية حلت محل الشمس يوماً من الأيام ، لانتهد الحياة فجأة ، بغليان الأنهار

والمحيطات والقارات الجليدية التي حول القطبين . وضوء الشمري الجمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات ؛ وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق . فانظر الى هذا البعد السحيق . وليست الشمري الجمانية أكبر نجم في السماء . وهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشمري أكثر من عشرة آلاف مرة .

وعظمة السماء ليست في الشمس وتوابعها ، كلا ، إن عظمتها في مدنها النجومية ، في أقدارها ، وأوزانها ، وأضوائها ، وأبعادها على اختلاف أنواعها .

وهناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليوناً من المرات . وهناك السدائم وهي قريبة من الخلق أول الأمر . ثم يقف علم الانسان . والله تعالى وحده هو الذي يعلم خلقه : « ما أمهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

« وَاللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ » :

أي خلق الجبال في الأرض ، لئلا تميد الأرض وتضطرب . وليبان هذا يمكن أن نقول باختصار :

إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها ، على بعد منها ، وصلت بعض موادها الى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتبة كالشمس ، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة ، أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة ، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجمدت ، وحدث من التجمد نتوءات وأغوار ؛ فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التي غلفت الأرض . وهناك جبال جدت من اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحار ، وجبال نارية جدت من خروج اللحم النارية من وسط الأرض ، وتداخلها في الطبقات حتى صارت كأوتاد مفروزة فيها .

والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها ، وتوزعها وتغير اتجاهها ، وتكسر حداثها ، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المنكسكة ، الصالحة للإنبات ، والتي يغتذى بواسطتها الحيوان والانسان ، وتحفظها من أن تفور .

فالجبال أولاً ، حبست النار في جوف الأرض ، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة . والجبال توزع ضغوط الطبقات ، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح . فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض ، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح .

« وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » :

أي فرق فيها الدواب من كل نوع من أنواعها ، بعد أن صلحت الأرض للحياة بوجود

الطبقات الأرضية الصالحة للإنبات ، وبوجود الماء النازل من السحاب . والحياة ظاهرة من الظواهر العجيبة التي وجدت على الأرض ، لا يُعرف سرها ، ويظن أنها بدأت على صورة بسيطة ثم أخذت تتعقد وتتعدد وتزداد تعقيدا حتى ظهر هذا النوع الانساني الذي هو أكمل نوع من أنواع الحيوان ؛ فهو أحدث الأنواع القادمة الى الأرض ، ومع هذا فهو أكملها وأدناها على قدرة الخالق سبحانه ، وسعة علمه وحكمته .

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » :

بعد أن مهد الله الأرض ، وألقى فيها الرواسي ، ووجدت فيها طبقات متفككة طينية وغيرها تصلح للنبات ، يشر سبيله لفائدة الانسان وغيره من الدواب المنبثة ، فأُتزل من السماء ماء ، وأنبت فيها كل زوج كريم من النبات . والماء النازل من السماء هو ماء الأمطار ، وهو من ماء البحار المالحة التي تتبخر بواسطة فاموس الحرارة فنصير سحابة تصرفه الرياح ، ثم ينزل مطرا يحوي به الله الأرض بعد موتها ، ويسلكه بنابيع في الأرض تنفجر أحيانا من غير صنع الانسان ، وتنفجر أحيانا بصنعه ، وكل نوع من النبات فيه الذكر والانثى .

وقد يكون الذكر وحده والانثى وحدها ، كالنخل ، وقد تكون الشجرة مشتملة على زهرتين إحداهما ذكر والاخرى أنثى .

وقد تكون الزهرة مشتملة على الذكر والانثى معا ، وعلى كل حال فعالم النبات كعالم الحيوان لا بد فيه من التزاوج لبقاء النسل في الأنواع .

وكل زوج من النبات كريم شريف ، وكل زوج من الحيوان كريم شريف ، ولكل شيء منفعة خلق لأجلها .

ولا يلزم في شرف النوع أن يكون محبوبا عند الإنسان أو مفيدا للإنسان ؛ وتنوعات الحياة واشتقاقاتها أوجدت هذه الأنواع ومنها الانسان .

والنبات والحيوان يرجعان الى عناصر واحدة في الأرض لا تختلف في أصولها ، بل تختلف في طرق تركيبها من الذرات . وما زالت النواميس الإلهية تعمل عملها ، ويزداد التعقيد في تركيب الحيوان والنبات ، وتندرج الأنواع في الرقي حتى وصلت الى ما نحن عليه . ومادة العالم جميعها واحدة من مبدأ الخليقة ، وهي السديم الذي مرت عليه الاطوار حتى صار نباتا وحيوانا ؛ وهذه هي وحدة الوجود ؛ فالخالق واحد ، والمخلوق واحد أيضا .

« هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » :

بعد أن بين الله سبحانه أنه خلق السموات بغير عمد ، وألقى في الأرض رواسي ، وبث فيها

من كل دابة، وأنزل من السماء ماء أنبت به من كل زوج كريم، التفت الى المشركين الذين يشركون مع الله في العبادة آلهة أخرى، ويستعينون بهم، فقال لهم: هذا خاق الله. والإشارة في «هذا» لم تبق شيئاً قط يمكن أن يشار اليه من الموجودات. فكانه قال: هذه جميع الموجودات خلقها ورتبها وسواها، فأروني شيئاً خلقه هؤلاء الآلهة. ولا يمكن أن يكون الجواب سوى أنه لا يوجد شيء خلقه الذين من دونه. فتنقطع حججهم، وتقوم الحجة عليهم.

وسياتي في آخر السورة قوله سبحانه: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، قل الحمد لله، بل أكثرهم لا يعلمون».

وقوله سبحانه: «بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»:

معناه أنه لا توجد للكافرين شبهة في الإشراف، لكن الضلال هو السبب في الإشراف ولا سبب غيره. والظالمون هم المشركون: «إن الشرك لظلم عظيم». والظلم وضع الشيء في غير موضعه.

إياك نعبد وإياك نستعين. اهتدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. واحفظنا من كيد الشيطان وجنوده، ونجنا من جهد البلاء، وكيد الداء، وشماتة الأعداء، واحفظ بلادنا من الضراء، وأنزل عليها الرحمة، وبارك لها في أقواتها وأرزاقها، وعم عبادك جميعهم بلطفك، ليسود السلام، ويطمئن الأطفال والشيخ والنساء. أنت رب العالمين، وأنت أرحم الراحمين. نفحة منك، وأنت الجواد الكريم، تعلى بها قدر الاسلام والمسلمين.

كما نسألك لصاحب الجلالة مليكنا المحبوب العزيز «فاروق الأول» توفيقاً وعزاً، وقوة ونصراً. أنت نعم المولى ونعم النصير؟

## كيف نحافظ على الدين ؟

في هذا العصر

الجواب على هذا السؤال يجب أن يشغل المكان الأول من تفكير حماة الاسلام في هذا العهد ، كما شغل حماة الأديان في العالم الغربي طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين شد العلم عليها فأثبت لهم وهن أصولها ، وتداعى أركانها ، لقيامها كما زعموا على الخيالات التصورية الموروثة ، لا على القواعد العلمية اليقينية .

نعم إن السواد الأعظم من الناس هنالك لا يزالون متمسكين بالدين ، ولكن على حساب الإيمان بالتقليد ، لا على حساب الإيمان بالدليل ، وهي حالة يعتبرها خصوم الأديان عرضية لا تلبث حتى تزول يسيراً يسيراً .

ونحن في الشرق قد جاءت نوبتنا ، بعد أن انتشر العلم في ربوعنا ، وتسلطت فلسفته على عقولنا ، فإذا أعددنا لها الحماية حقاً فثنا ؟

إن كل ما أعددناه من الأسلحة لم يكاثرهما ، المنطق ، وقد حطمتها الفلسفة الجديدة باعتبار أنه قائم على المسلمات العقلية ، وهذه المسلمات لم تعد لها قيمة إقناعية ، جرياً على الأصل الفلسفي الراهن ، وهو : أن كل معقول لا يقوم عليه شاهد من المحسوسات لا يصح الاعتماد عليه في التدليل ، لأنه هو نفسه بحاجة الى دليل يثبته . فانتقل بذلك ميدان الكفاح من عالم المعقولات الى عالم المحسوسات .

لا أريد بهذا أن أقول إن المسألة انتهت الى ما زق لا يخرج منه ، ولكني أريد به أن أنبه القائمين على المحافظة على الدين أننا بسبيل جهاد عنيف يجب أن نستخدم فيه جميع الأسلحة العلمية ، وهي تحتاج الى خبرة واسعة لاستعمالها ، ولباقة بالغة في توجيهها .

إننا في زمان أصبحت تُوجّه فيه الشبه الى الأديان من المعامل العلمية مباشرة ، ومنها ما كان يظن أنه مقطوع الصلة بها ، كالمعامل البيولوجية والفيزيولوجية والجيولوجية الخ (١) ، وقد لقي رجال الدين في العالم الغربي من هذه الشبهات أمراً إمرأ ، وافتنن بشبهاتهم كل من لهم مشاركة في هذه العلوم ، فشالت كفة الدين ، ورجحت كفة الإلحاد ، وأيقن الناظرون هنالك أن عهد الدين قد انقضى ، ولا يرجى له من معاد .

(١) البيولوجيا : علم الحياة ، والفيزيولوجيا : علم وظائف الاعضاء ، والجيولوجيا : علم طبقات الارض .

إن هذا الدور من الصراع بين الدين والعلم قد وصل إلينا منذ عهد قريب بما حمله إلينا الغرب من علومه وفلسفته ؛ فأصبحنا ولا محيد لنا عن الدخول فيه .. ومما يعتبر من حسن حظنا أن يوافق عهدُ دخولنا في هذا الصراع ، عهدَ إفاقة للعلماء الكونيين من غرور على طال عليهم الأمد فيه ، إفاقة كشفت لهم أنهم كانوا مخدوعين بمقررات اعتبروها يقينيات حاصلة على جميع شروط الدليل الطبيعي المحسوس ، على حين أنها كانت لا تخلو من عنصر الافتراض ، وهو يدع الباب مفتوحا للتعديل والتحوير ، بل للتخلي عنها إن ظهر أن غيرها أجمع منها لهذه الشروط . وهذه حالة طأمنت من الخيلاء العلمية إلى مدى بعيد ، وأهابت بأهلها إلى إطالة التفكير . قال العلامة الكبير هنري بوانكاريه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي في كتابه ( العلم والافتراض ) ( La science et l'hypothèse ), par Henri Poincaré :

« الحقيقة العلمية في نظر المتأمل السطحي تعتبر خارجة عن متناول الشكوك . وعنده أن المنطق العلمي غير قابل للنقض ، وأن العلماء إن أخطأوا أحيانا ، فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده .

« والحقائق الرياضية في نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ . وهي مفروضة ليس علينا فقط ، بل على الطبيعة أيضا ، مقبدة الخالق نفسه ، ولا تسمح له إلا باختيار حل من بين الحلول القليلة المددقة نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أي شيء قد اختار الخالق منها . ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية على هذه الصورة ، نعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

« هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة . وهذا هو جهد فهمهم للدور الذي تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحملون منذ مئة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروى العلماء قليلا ولاحظوا مكان الافتراض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضيات نفسها لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا قائلين : هل هذه المباني العلمية على شيء من المثانة ؟ ثم تحققوا أن نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحيا أيضا ، فإن الشك في كل شيء أو الاعتقاد بكل شيء يعتبران حلين قليلي المثانة ، فإن كلا منهما يعقينا من أعمال الروية ، انتهى .

نقول : إن هذا القول قد يعده بعضهم جرأة غير محمودة ، وقد يعتبره آخرون شذوذا

تدفع اليه حدة عصبية تغلب على مزاج صاحبه، ولكن مثل هنرى بوانسكاريه، وهو مفخرة الأمة الفرنسية فى العلوم الرياضية، لا يصح أن يتهم بهذه النقيصة، لا سيما وليس هو بالمنفرد بهذه المزاعم، فإن أركان النهضة العلمية كافة، وهم من أجناس مختلفة، يقولون بهذا الرأى نفسه. فإليك مثالا من ذلك : قال الأستاذ الكبير شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب الباريزية، والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتبها فى كتاب ( الظواهر النفسية ) للدكتور ماكسويل النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية، قال فى صفحة ٧ :

« يجب على الانسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم فى عهدنا الراهن مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا. ثم قال فى صفحة ٩ منه :

« إن حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الإفلات. فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تُعرف إلا عرضا، وإذا كان لم يوضع الحديد الحلو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا، كنا جهلنا دائما أن المغناطيس يجذب الحديد. وما كان أحد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة رنتجن. ( كتبت هذه المقدمة فى سنة ١٩١٤ ). وقبل أن تكتشف الفوتوغرافيا كان لا يدرك أحد أن النور يؤثر فى إملح الفضة، ولم تكتشف الأمواج الهرتزية ( نسبة الى هرتز الطبيعى ) إلا منذ ثلاثين سنة. ومنذ مائتى عام كان لا يُعرف عن القوة الكهربائية العظيمة إلا خاصة جذب الكهرمان إذا ذلك بالصوف. ثم قال بعد ضربه الأمثال :

« لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن كل هذا العلم الذى نفخر به الى هذا الحد ليس فى حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء، وأما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا. والطبيعة الصحيحة للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا؟ مثال ذلك أننا إذا ألقينا حجرا فى الهواء نراه يسقط الى الأرض. فلماذا سقط؟ يجهلنا نيوتن بقوله : سقط لجذب الأرض له جذبا مناسبا لمادته، وللمسافة التى سقط منها. ولكن ما هو هذا الناموس إن لم يكن مجرد تحصيل حاصل، وإلا فهل فهم أحد كنه تلك الذبذبة الجاذبة التى جعلت الحجر يسقط على الأرض؟ إن ظاهرة سقوط حجر على الأرض من الشيع بعث لا تدهشنا. ولكن الحقيقة أنه لا يوجد عقل إنسانى فهم ذلك. إن هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة، ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء ( تأمل ).

« نرى البيضة تُلَفَّح فتصير جنينا، ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة، ونحن بين مخطئين ومصيبين فى الواقع؛ ولكن هل فهمنا، رغمنا عن وصفنا الدقيق لها، سر ذلك التحول الذى يحدث فى البروتوبلازما الخلوية فيقلبها الى كائن حى عظيم؟ بأى معجزة تحدث تلك التجزؤات؟ ولماذا تتجمع تلك التحيبات هنالك؟ ولما تهدم هنالك لتعيد تألفها فى مكان آخر؟

« ألا إننا نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها يليق بقيمتها ، حتى إن أكثرها بساطة لا يزال سرا من الأسرار المحجوبة كل الاحتجاب . فإذا يعنى اتحاد الأيدروجين بالأكسجين ؟ ومن الذى استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد ، وهو يفضى الى إبطال خواص الجسمين المتحدين ، وإيجاد جسم ثالث مخالف للأولين كل المخالفة ؟ إن العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الذرة المادية التى توصف بأنها ليس لها ثقل ، وهى مع ذلك تصير ذات ثقل متى اجتمع عدد كبير منها .

« الأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا فى آن واحد ، فتواضعه يكون بسبب علمه بأن علومنا ضئيلة ، وجريئنا (تأمل) لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه ، انتهى .

هذا التحول العظيم لمذهب علماء الكون يعتبر فاتحة عهد جديد للعقلية العلمية ، سيكون من أثره حدوث انقلاب جلل فى الفلسفة مناسب له كل المناسبة . فبعد أن كان باب التحكم الانكارى مفتوحا على مصراعيه ، ومدعوا بكل ضروب الاغراء اليه ، أصبح لا يستهوى إلا كل هزيل الروبة ، قصير النظر . وهذا لا يعنى أن العقلية العلمية أصبحت سهلة القيادة على الظنون والأوهام ، يمكن تحويلها من الاتحاد المستعصى الى الإيمان المطلق بغير دليل محسوس ، أو حجة فى درجة العيان . لا ! فالامر على العكس ، فإن ثبوت انخداعها فى طلم العلم ، وأدلتها كانت من القوة بحيث تستهوى العقل ، يبعث فيها من خصلة التثبت ما تأمن معه أن تقع ثانية فى مثل ما كانت واقعة فيه من الغرور بالظواهر الخداعة ؛ فهى إذا كانت قبل اليوم مستعصية ومنيعه ، فهى اليوم أعزى وأكثر مناعة حبال كل ما ليس له دليل من الحس ، وما لا يمكن تحليله وتركيبه من المعلومات . فالكسب الوحيد الذى حصلت عليه الإنسانية هو أن العقلية العلمية أصبحت أكثر تواضعا أمام الوجود ، وأشد تلهفا على وجدان الحقيقة . فبعد أن كانت تحسب أن ليس وراء ما وقفت عنده من المحسوسات مذهب ، ولا بعد ما انتهت اليه منقلب ، صارت تصرح كما يصرح العلامة الكيمائى الكبير السير وليم كروكس رئيس المجمع العلمى البريطانى كما جاء فى مجموع خطبه بصفحة ٨ :

« لست بأسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الانسانية ، بل إنى أعتبرها منشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سواى أهلا لأن نعين مقدما ما ليس بموجود فى الكون ، ولا أستطيع أنا ولا أحد غيرى أن نقول بأن شيئا بعينه لا يحصل حولنا فى كل يوم من أيام حياتنا . هذه العقيدة نحدث لى أملا قويا فى أن اكتشافا رئيسيا جديدا يمكن أن يحدث فى مجال من المجالات فى أقل الاوقات تفكرا فيه ،

وكما تصرح العقلية العلمية الجديدة بلسان فيلسوف أميركا الأكبر (وليم جيمس) المدرس بجامعة (هارفارد) كما جاء فى كتابه إرادة الاعتقاد La volonté de croire :

« هل يعقل أن العلم ولم يعض على ميلاده إلا يوم واحد . . . يستطیع أن يمثل لنا شيئاً آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه الكون في نظر الذين سيفهمونه على حقيقته في يوم من الأيام ؟ كلا ! إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأکید هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له الى اليوم » .

وتصرح بلسان الأستاذ الجليل أوليفر لودج رئيس جامعة برمنجهام في خطبة له في المجمع العلمي ، وهو رئيس القسم الرياضی والطبیعی فيه :

« إن الذي نعلمه ليس بشيء الى جانب ما يجب علينا أن نتعلمه ، وقد يقال ذلك أحيانا بلا اعتقاد ، أما بالنسبة إلى أنا فهي الحقيقة الحرفية . وإرادة قصر مباحثنا على المجالات التي افترضناها نصف افتتاح ، يعتبر خيانة لجهود الرجال الذين كادوا للحصول على حرية البحث ، وتحجيباً لأقدس آمال العلم » .

هذه بضعة تصريحات لأقطاب العلم العصري بعد إفاقتهم من دور الغرور الذي كانوا فيه ، ولو شئنا لاتينا على ملء مجلد ضخم منها .

نعم ، إن هذا التحول في العقلية العلمية لا يعنى في ذاته شيئاً غير الترقى من عهد الانخداع بالظواهر ، الى عهد الاعتراف بالجهل بالحقائق ، والتأهب لبحث كل ما يعرض للبحث ، ولو كان فيه قلب للأصول المقررة ؛ ولكن هذا وحده يعتبر انتقالاً يفضى بالعلم الى مكتشفات قد ثبتت للإنسانية أموراً تحن الى إثباتها ، وتراها أكبر المعجزات في تكاليف حياتها ؛ خلافاً لما كانت عليه الحال ، من اعتبار كل ما ليس بمادة محسوسة خيالات عقلية لا وجود لها في الخارج .

وقد اندفع أوف من العلماء من كل جنس في التسعين سنة الأخيرة فبحثوا على مقتضى الدستور العلمى في الروح البشرية ، والعالم الروحاني ، مباحث عملية تجريبية ، ووقفوا على مشاهدات ذات دلالات بعيدة المدى ، ودونوها في مئات من المؤلفات بكل لغة ، ونشروها في مجلات خاصة وطامة ، بل وفي جرائد يومية كثيرة أيضاً ، يمكن أن تكون أدلة حسية على صحة أهم الأمور الاعتقادية في الأديان . ولا يزال البحث مستمراً فيها ، ونتائجها الإيجابية تزداد كل يوم كثرة . ولا تم لهؤلاء العلماء إلا التحسس من المجاهيل الوجودية بعد أن مزقت اليقظة التي حصلوا عليها الحجب التي كانت مسدولة على أعينهم ، فاهتدوا الى أمور خطيرة للغاية تؤيد المعتقدات الدينية تأييداً لا حد له .

وقد كان من نتائج هذه الحركة أن تألفت جماعات من العلماء تكافح النظريات المادية كفاحاً لا هوادة فيه ، وبالأدلة المحسوسة . ونحن نعرض للقراء مدى ما بلغ اعتداد بعض العلماء بهذه النتائج العلمية غير المنتظرة ليتبينوا مبالغ الانتقال الذي حدث في العقلية

العلمية منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر . قال العلامة الفلكي الأشهر ( كاميل فلاماريون ) في كتابه ( المجهول والمسائل النفسية ) ، تمكنا بالدين يقفون بالعلم في حدوده المادية القديمة : « الذين يقولون : معاذ الله أن نصدق هذه المستحيلات ، لا لا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ؛ هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون في رسمهم الى جبل طارق هذه العبارة : ( هنا تنتهي الدنيا ) ، ولم يعرفوا أن في تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون في ذلك الحين » .

وقال في صفحة ( ٧٥٠ ) من كتابه المذكور :

« فالمشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بمحواسنا الخمس » .

وقال هذا العلامة نفسه في صفحة ٨ من كتابه ( القوى الطبيعية المجهولة ) :

« أنا لا أخفي عن نفسي بأن كتابي هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات أصولية ، ولا يستطيع أن يقنع غير الباحثين المستقلين ، ولكن ما أقل العقول المستقلة الحرة على سطح كوكبنا هذا ؛ وما أقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية أو كائن بمجهور قرائي يقولون : أي شيء فيما ذكرت يوجب الاهتمام : أخونة ترتفع عن الأرض ، ومناضد تتحرك ، وكراسي تنتقل عن مواضعها ، وبيانات تففز وستائر تضطرب ، وطرفات تحدث ، كل ذلك بلا سبب معروف ، وأجوبة ترد على أسئلة عقلية لم يتلفظ بها الخ ، كل هذا من الأمور التافهة أو الهذيان الذي لا يصح أن يلفت نظر عالم من العلماء ... »

« لا جرم أن من الناس من قد تسقط السماء على رؤوسهم فلا يحسون . أما أنا فأجيهم قائلا : ماذا تقولون ؟ ألا يمد شيئا لا يؤبه له عندكم أن ندرس طبيعتنا الخاصة ، وخصائصنا الذاتية ؟ » .

وقال العلامة ( بيجرانيه ) المدرس بجامعة السوربون في كتابه ( الحركة النفسية الذاتية ) صفحة ٣٧٦ وما بعدها :

« المذهب الذي أوجزنا الكلام عنه يستحق درسا مدققا ، ومناقشة أصولية ؛ وإن التشكك والازدراء اللذين يحملان على نسكران كل ما لا يفهم ، وعلى تردد كليتي غش وتدليس دائما وفي كل مكان ، ليس لهما محل هنا ، ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيواني ، فإن الحركة التي دفعت الى تأسيس خمسين جريدة في أوروبا ، وحملت على اعتقاد صحتها عددا عظيما من الناس لا يصح أن تعتبر قليلة القيمة » .

وقال الأستاذ الدكتور شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا في كلية الطب الباريزية والعضو بالمجمع العلمي الفرنسي ، في المجموعة السنوية للمباحث البسيكولوجية لسنة ١٨٩٣ :

« لا يمكن أن يكون مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين في إنجلترا وأمريكا وفرنسا والمانيا وإيطاليا قد وقعوا تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل ؛ والحقيقة أن كل ما وجه اليهم من الاعتراضات قد فكروا فيه ، وتناقشوا عليه ، ولم يزدحم أحد علما كلما حارّضهم بمسألة المصادقات الممكنة والتدليس ، فانهم فكروا فيها قبل أن يمارضوا بها ، حتى إنى لا أستطيع أن أتوهم أن أعمالهم كانت عقيمة ، أو أنهم قد تأملوا وجربوا في أوهم خداعة » انتهى .

إنى لم أرد من إيراد كل ما أورده إلا أن أثبت أن العقلية العلمية قد افتسكت من الربط الفولاذية التي كان قد أوثقها بها المذهب المادى ، وأنها قد أصبحت حرة تتناول كل بحث غير حاكمه عليه قبل النظر فيه بالاستحالة ، متابعة لأصول مقررة رسمت للبحوث العلمية حدودا لاتتمدهاها ، وقررت عدم وجود شئ وراء العالم المحسوس ، فهذا التحرر خطوة واسعة ستؤدى حتما الى وجدان اكتشافات جديدة في حقيقة القوى العاملة في الوجود ، يستفيد منها الدين أدلة محسوسة على صحة العقائد التي يدعو إليها .

وإنى لم أعتدّ بالعلم الكونى هذا الاعتداد كله ، إلا لأنه هو المتصرف الوحيد في عقلية الناس ونفسياتهم ، فما قاله فى شئ أنه محال أو وهم باطل ، فلا يوجد دليل فى الأرض يمكن أن يرفع عنه هذا الوصف ، وإن تظاهر حماسة الأديان بخلاف ذلك .

وقد أردفت التبشير بهذا التطور الجلل الذى دخل فيه العلم ، بتأكيد رجال من علميتهم بوجود عالم روحانى ، وبعثورهم على أمور محسوسة تدل عليه دلالة قاطعة ، لا يثبت صدق ما ذهب إلى من أن هذا التطور سيكون فاتحة عهد انتقال بعيد المدى ، سيسنعيد الدين من ورائه سلطانه على العقول .

وإذا كان هذا كله مسلما به فإن من المحافظة على الدين أن يدرس علم الطبيعة فى معاهده مراعى معه ذكر التطور الذى حدث فيه ، فلا تلقى أصوله باعتبار أنها حقائق مقررة لا تقبل التحوير ، ولكن باعتبار أنها تقارير ظنية يؤخذ بها مع توقع تهذيبها أو استبدال غيرها بها متى كشف فى موضوعها أمر جديد . ويجب مع هذا أن تجعل لهذا العلم مقدمة تبين بها حقيقته والتطورات المتتالية التى دخل فيها ، ليرى المتعلم أنه أمام علم لم يبلغ بعد طوره الأخير .

ولا أرى بأسا من أن يتخير لطلبة الدين بعض ما أثبتته علماء أوروبا بالتجارب العملية من وجود قوى فوق قوى الطبيعة تؤثر فيها فتبطل عملها ، أو تصرفها عن وجهها ، مما يعطيهم فكرة عامة على ما الانسانية بسبيله من مكتشفات جديدة توسع من دائرة معرفتنا بحقائق الوجود .

أليس مما يؤسف له أن تبقى هذه المكتشفات وقفاً على رجال العلم الكونى، ويحرم منه الذين تحتم عليهم طبيعة ما يدرسونه أن يكون لديهم ذخيرة منه ليدحضوا به شبهات الملحدين، وشكوك الشاكين في صحة ما يقررون؟

أوليس مما لا يليق أن تبقى كتب العلم الطبيعى بين أيديهم على ضلالها القديم، مقررة أن المادة لا تنعدم ولا تتجدد، على حين أن العلم الطبيعى نفسه قد توصل منذ أكثر من ثلاثين سنة إلى إفناء المادة بنحويلها إلى قوة، وهو اكتشاف أصاب المذهب المادى فى الصميم؟

فاذا أردنا أن نحافظ على الدين فى وسط عدد لا يحصى من الشبهات الإلحادية التى توجه إليه، وجب علينا أن نمكن أهله من الأسلحة الماضية التى تحلل هذه الشبهات وترى بها بواسطة المكتشفات الجديدة إلى مكان صحيح؟

محمد فريد وهبى

## أظهار النعمة

روى العتبي قال: أصابت الربيع بن زياد نشابة على جبينه فكانت تنتفض عليه كل عام؛ فأتاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه طائداً، فقال له: كيف نجدك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: أجندنى لو كان لا يذهب ما بنى الإضياع بصرى لتمنيت ذهابه.

قال أمير المؤمنين: وما قيمة بصرك عندك؟ قال الربيع: لو كانت لى الدنيا فديته بها. قال الخليفة لا جرم يعطيك الله على قدر الدنيا لو كانت لك فأتعقتها فى سبيل الله. إن الله يعطى على قدر الألم والمصيبة، وعنده بعد تضعيف كثير.

قال الربيع: يا أمير المؤمنين، إني لأشكو إليك حاصم بن زياد. قال: وما له؟

قال الربيع: لبس العباء وترك الملاء، وغم أهله وأحر ولده.

قال على رضى الله عنه: على عاصم. فلما أتاه عبس فى وجهه، وقال له: ويلك يا عاصم! أترى الله أباح لك اللذات، وهو يكره أن تأخذ منها! أنت أهون على الله من ذلك. أو ما سمعته يقول: مرج البحرين يلتقيان، حتى قال: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان؟ وتالله لا بتذال نعم الله بالفعال، أحب إلى من ابتذالها بالمقال. وقد سمعته يقول: وأما بركة ربك فخذت، ويقول: قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟

قال حاصم: فلماذا اقتصررت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن، وأكل الجشب؟

قال الامام: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع بالفقير

فقـره .

قال الربيع: فما خرج عاصم من عند أمير المؤمنين حتى لبس الملاء وترك العباء.

# حياة رجال الإسلام

عثمان بن عفان

اختلفت على الباحثين طرائق البحث في التاريخ ، لأن الحياة العلمية المعاصرة اتخذت النقد والتحليل سبيلها اللاجبة الى غايتها الدراسية ، ووسيلتها الى درك الحقائق ، وتحليلها من نوايا الأقاصيص المحشوة بالمبالغات والاباطيل ، تأييدا للمذهب سياسى ، أو نحلة اعتقادية ، أو لغرض من الأغراض التى دون التاريخ فى ظلها ، فلم ترض بسرد الروايات ، وسوق القصص دون تمحيص يرد النتائج الى مقدماتها ، والمسببات الى أسبابها ، ولا سيما إذا كان الحديث فى مرحلة معقدة ، تحامى الباحثون سبيل النقد فيها لدوافع زمنية ، أو إبقاء على قداسة شخصيات أجلبها التاريخ عن النقد ، أو خضوعا لغموض يكتنف الحوادث وتغيب فى مطاويه الحقائق .

ولست فى التاريخ الاسلامى مرحلة أشد تعقيدا ، ولا أعظم غموضا ، ولا أكبر فى الاعين قداسة من المرحلة التى تبدأ بخلافة عثمان رضى الله عنه ، وتنتهى بتسليم الحسن بن على الأمر الى معاوية رضى الله عنهما ، فهى مرحلة معقدة ملتوية ، لأن الأمور اختلطت فيها على الناس ، وتشابهت على العقول والأفكار الحوادث ، وعظمت على النفوس الأحداث ، ومن ثم اعتزلت الحياة الصاخبة طائفة من الأجلاء ووجوه الصحابة ، كعبد الله بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ، وسلمان الفارسى ؛ وفى ذلك يقول الامام النووى فى شرح مسلم : « إن القضايا كانت مشتبهة ، حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب » .

وقد دخلت فى هذه المرحلة الى رواق الحياة الاسلامية شخصيات لم تستضىء ساحات قلوبها بأنوار النبوة ، ولم تستكمل حضانتها الاسلامية فى ظل اليقين ، وزاحمت بمناكبها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقصتهم عن أمرهم ، وقبضت على أزمة كثير من مرافق الحياة فى الأمة ، فكان لهذه الشخصيات الدخيلة أثر عظيم فى هذا التحول الذى اتجه اليه التاريخ الاسلامى بعد تلك الفتنة الهوجاء .

وهى مرحلة معقدة ملتوية ، لأنها وهى لا تزال تزخر بأجلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الذين رباهم وهذبهم وصقل نفوسهم بنور الهداية ، كانت مباءة لبدء ظهور الفرق التى مزقت وحدة المسلمين ، وبددت شملهم ، وجعلت القرآن عضيض ، تلجأ اليه كل فرقة وفى يدها سلاح التأويل ولو أدى الى التحريف ، لتجعل منه سندا لمذهبها ، وحجة على منسحلها ، ولو كان ما تلتحلّه أشبه فى سخفه بأساطير الاولين .

ففي ظل هذه المرحلة حبا مذهب الخوارج من مهده حتى نما واشتد في زمن علي كرم الله وجهه . ولقد كان هؤلاء الخوارج من أفسى الفرق الاسلامية شكيمة ، وأصلبها عودا ، وأنطقها لسانا ، وأعجبها تعبدا ، وأغربها أعمالا ، وأسرعها تهمة ، وأضيقها ذرعا بأخوانها ، حتى لقي منها المسلمون شرا مستطيرا ، وبلاء عاصفا .

وفي ظل هذه المرحلة شبت الاشتراكية المالية التي نادى بها أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، فكانت أنفة من الأناني التي ارتفع عليها قدر الفتنة العثمانية ، وأبو ذر من أخلص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سريرة ، وأصفاهم طوية ، وقد تملكته عاطفة الرحمة بإخوانه فقراء المؤمنين ، وكان يقيم وقتئذ بالشام حيث مظاهر الترف وغضارة العيش بدت على فريق من المؤمنين ، وقد رأى أن هذا المال الذي أتف به قوم ليست لهم فضيلة سبق الى إيمان أو هجرة أو جهاد أيام أزمات الدين ، يحتجز دون الفقراء وهم يتضورون ؛ ففهم في كتاب الله تعالى فهماً كان فيه صادق العقيدة ، يصدر في دعوته اليه عن يقين وإخلاص ؛ روى البخاري عن زيد بن وهب قال : « مررت بالرَّبَذَةِ فاذا أنا بأبي ذر ، فقلت : ما أتلك متزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في « الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب ، فقلت : نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه في ذلك ، فكتب الى عثمان يشكوني ، فكتب الى عثمان أن اقدم المدينة ، فقدمتها فكثرت على الناس حتى كأنهم لم يروني قبيل ذلك ، فذكرت ذلك لعثمان ، فقال : إن شئت تنحيت فكنت قريبا ؛ فذاك الذي أتزني هذا المنزل ، ولو أمروا على حبشيا لسمعت وأطعت .

قال القرطبي في التفسير : « قيل الكثر ما فضل عن الحاجة ، روى عن أبي ذر ، وهو مما نقل من مذهبه ، وهو من شدائده ، ومما انفرد به رضي الله عنه . » وذكرت بعض الروايات أن معاوية رضي الله عنه امتحن إخلاص أبي ذر رضي الله عنه لمذهبه الاشتراكي ، فأرسل إليه في جوف الليل بألف دينار ، فلما أصبح استرجعها منه بحجة قالها ، فعاد إليه رسوله بخبره أنه لم يجد عند أبي ذر شيئا منها .

وبعض أئمتنا يفهم اشتراكية أبي ذر على نحو يفاير تمام المغايرة ما يفهمه الماديون من هذه الكلمة ، يفهمها على أنها اشتراكية إرفاق ومواساة وعطف وبر منتزعة من صميم الاسلام ؛ قال الامام القرطبي : « ولو كان ضبط المال ممنوطا لكان حقه أن يخرج كله ، وليس في الأمة من يلزم هذا ، وحسبك حال الصحابة وأموالهم رضوان الله عليهم ، وأما ما ذكر عن أبي ذر فهو مذهب له رضي الله عنه ، وقد روى عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كثر يكوى به يوم القيامة » . قال القرطبي : قلت : هذا الذي يليق بأبي ذر رضي الله عنه

أن يقول به ، وإن ما فضل عن الحاجة فليس بكثرة إذا كان معدا لسبيل الله . فما أحوج المسلمين في هذا العصر الآزم الى اشتراكية فاضلة يفهمها أتباعهم على هذا التصوير النبيل ! ومهما يكن من أمر مذهب أبي ذر رضى الله عنه فقد تلقفه شياطين الفتنة محتمين بما لصاحبه من مكانة في الدين ، وجعلوه دعامة من دعائم ثورتهم النكراء ؛ وكذلك عواصف الفتنة إذا هبت فإنها لا تعقل ولا ترحم .

وبين أحضان هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى نبئت الحلولية السبائية ، وهى دعوة خبيثة ، نعت بها ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودى ، وهو رجل من يهود اليمن انتحل الإسلام لأغراض كان يسترها ، وقد كشفت عنها دعوته الخبيثة . قال الأستاذ أحمد أمين فى فجر الإسلام : « وقد ذكروا أن أول من دعا الى تأليه على عبد الله بن سبأ اليهودى ، وكان ذلك فى حياة على » ، وهو الذى حرك أبازر للدعوة الاشتراكية ، وهو الذى كان من أكبر من ألّسب الامصار على عثمان . والذى يؤخذ من تاريخه أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نيته . وقد طوف ابن السوداء فى جميع أقطار الإسلام لبذر بذوره ، ونشر مبادئه الآثمة .

وفى ظل هذه المرحلة ترعرع مذهب الشيعة تحت ستار حب آل البيت ، وقاد ابن السوداء بعض طوائفهم الغالية الى مقالات بشعة شنيعة منكورة ، وتولدت عند المعتدلين منهم آراء لا تزال الى يومنا هذا مسرعة خصومة بين جماعات المسلمين .

وفى هذه المرحلة تفتحت على المسلمين أبواب الدنيا وكنوزها ، فتنافسوها ، وجمعوا الاموال ، وابتنوا القصور ، وغرسوا الحدائق ، وأكثروا من الإماء والعبيد ، واتخذوا الضياع ، وتأنقوا فى معيشتهم ، وهجر كثير منهم حياة الزهادة والتقشف التى كانت طابعهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألفت أنفسهم الدعة والرفه ، والتقلب بين أحضان النعم ؛ والاموال فائضة ، والأرزاق مواتية ، والدنيا مقبلة ، والأعمال قليلة .

وفى هذه المرحلة بدأت أكاذيب الفرق فيما يكيد به بعضها بعضاً ، حتى أخذت تلك الأكاذيب صورة الحجاج بأحاديث يتقولها زعماءهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأويلات محرّفة لآيات الله تعالى ، ومن ثم تألفت سلسلة الموضوعات والتلبيسات التى ابتلى بها الإسلام ، وحشيت بها كثير من كتب الإسلام ؛ ولولا توفيق الله تعالى رحمة بهذه الأمة ورعاية لهذا الدين لجماعة من أئمتنا المصطفين الاخيار فانهضوا لتنقيح أسانيد الروايات وبهرجة الزائف منها ، لما بقيت للإسلام صورته التى جاء بها القرآن الحكيم .

وبالجملة : فى هذه المرحلة تفرق المسلمون ثم لم يجتمعوا الى يومهم هذا ، وكانت هذه الفرقة هى الداء الدوى فى حياة الإسلام . قال علامة المغرب الشيخ ابن مخلوف فى كتابه طبقات

المالكية : « فبينما العرب في مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يتمتعون بما أفاض الله عليهم من تراث الأمم ، ويتسمنون ذرى الحضارة ، ويتبسطون في العيش ، ويسرون سيرهم الحثيث في الفتح ، ويرفمون لأخلافهم بنيان المجد ، والدنيا مقبلة عليهم ، وملك فارس والروم صار اليهم ، وعثمان في مأمن من رافته ولينه عليهم ، إذ صاح بهم صائح الفتنة ، فاستوقفهم عن سيرهم ، ثم قذف بهم في لجج من التخاصم ما بلغوا ساحله إلا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة ، فكان عصر عثمان بهذا عصرا جمع بين الأضداد من الرخاء والشدة ، والراحة والتعب ، والغنى وضده ، والقوة والضعف ، ومنها بدأت سلسلة الأحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية ، وإليه ينتهي تاريخ الانقلاب العظيم الذي طرأ على الدول الإسلامية ، وحول مجرى السياسة عن وجهتها الأصلية » .

وهذه المرحلة من تاريخ الاسلام فامضة أشد الغموض ، لأن التاريخ لم يستطع - مع طول الزمن - الفصل في شيء مما أدى الى هذا الانقلاب الذي غيّر كل شيء في حياة المسلمين ، فإذا حدثك برواية سرّع ما ينقضها برواية أخرى ، وإذا أعطاك صورة لشخصية لم يترك لك معالمها بيّنة حتى تستقر في ذهنك وتتعرف عوالمها من سوافلها ، وإذا وقف بك على سبب حادث من الأحداث استدرك عليه بسبب آخر يهدمه . فالباحث يقف من هذه المرحلة على شط الحيرة حتى يهيء الله له من أمره رشدا .

والى جانب ذلك كله هي مرحلة مقدسة في تاريخ الاسلام ، لأنها تتناول في أكثر جوانبها سيرة رجال لهم من شرف الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه بأنفسهم وأموالهم ، وإقامة بناء الاسلام ، وفتح البلاد ، ونشر لواء القرآن الحكيم بين الأحمر والأسود في أقطار الأرض ، لهم من ذلك وغيره من المفاخر الخالدة ما يعصمهم من النقد الصريح في نظر المسلم الذي يتمثل هذه المناقب الفاضلة فلا يرضى أن يذكر الى جانبها ما يشوه جلالها البديع .

مرحلة هذا شأنها ، من العسير على باحث يقصد الى رسم صورة لرجال الاسلام تكون نبراس هداية لشباب الاسلام في لجج عصرنا النائر ، أن يرتقب منه قارئوه صورة تفصيلية تجلو حقائقها وتكشف عن غوامضها ، لأن هذا مكان المؤرخ العام الذي يتسع له المجال لأخذ نفسه بأسباب البحث العلمي التزيه ، معتمدا على مناهج النقد والتحليل ، ومقاييس الاجتماع ، ولكننى - وأنا بصدد عرض سيرة ذى النورين أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، وهو قطب الحوادث الأولى من هذه المرحلة ، وقد قدمت بين يديها هذا التمهيد ليكون منار هداية في توجيه البحث حتى يستطيع قارئى مصاحبى على ضوئه - سأحاول أن أجلو صورة مصغرة لشخصيته النبيلة ، منتزعا ألوانها من حوادث التاريخ بعد تمحيصها بقدر استطاعتي ، على غرار ما كتبتة في سيرة إخوانه الراشدين ؟

صالح إبراهيم عرجون

## التصوف والمتصوفون

- ٩ -

تنمة الحديث عن محي الدين بن عربي

مما أسلفناه في الفصل السابق يتضح جيدا أن ابن عربي كان يؤمن بوحدة الوجود وإن كان قد ألتقى في سبيل حجتها عن الجماهير بمجهودا عظيما دفعه اليه حرصه على الحياة بعدما أفرغته ذكريات الحلاج وبجي السهروردي .

غير أنه لم يصعب على الخاصة من القدماء ولا على الباحثين من المحدثين أن يستشفوا هذه الوحدة في كثير من عباراته العلمية وقصائده الأدبية . فمن ذلك مثلا قوله في كتاب « الفتوحات » مايلي :

« ومعلوم ثان هو الحقيقة الكلية التي هي للحق وللعالم لا تنصف بالوجود ولا بالعدم ، ولا بالحدوث ولا بالقدم ، إذ هي في القديم إذا وصف بها قديمة ، وفي المحدث إذا وصف بها محدثة ، فلا تعلم المعلومات قديمها وحديثها حتى تعلم هذه الحقيقة ، ولا توجد هذه الحقيقة حتى توجد الأشياء الموصوفة بها ، فإن وجد شيء من غير عدم متقدم كوجود الحق وصفاته قيل فيها : موجود قديم لانصاف الحق بها ؛ وإن وجد شيء من عدم كوجود ما سوى الله تعالى وهو المحدث الموجود بغيره قيل فيها : محدثة ، وهي في كل موجود بحقيقتها ، فانها لا تقبل التجزؤ ، فما فيها كل ولا بعض ، ولا يتوصل الى معرفتها مجردة عن الصورة بدليل ولا برهان . ومن هذه الحقيقة وجد العالم بوساطة الحق تعالى ولم تكن بموجودة ، فيكون الحق قد أوجدنا من موجود قديم يثبت لنا القدم . وكذلك لتعلم أيضا أن هذه الحقيقة لا تنصف بالتقدم على العالم ولا بالتأخر عنه ، ولكنها أصل الموجودات عموما . وهي أصل الجوهر وفلك الحياة والحق المخلوق به وغير ذلك ، وهي الفلك المحيط المعقول ؛ فإن قلت : إنها العالم صدقت ، أو إنها ليست العالم صدقت ، أو إنها الحق أو ليست الحق صدقت . تقبل هذا كله ، وتتعدد بتعدد أشخاص العالم ، وتتزه بتزيه الحق . وإن أردت مثالها حتى تقرب الى فهمك فانظر في العودية في الخشبة والكرسي والمخبرة والمنبر والتابوت ؛ وكذلك التربع وأمثاله من الأشكال في كل مربع مثلا من تابوت وبيت وورقة ، فالتربع والعودية يحققانها في كل شخص من هذه الأشخاص ؛ وكذلك الألوان كبياض الثوب والجوهر والكاغد والدهان والدقيق من غير أن تنصف البياضية المعقولة بالانقسام حتى يقال : إن بياض الثوب جزء منها ، بل حقيقة ظهرت في الثوب كما ظهرت في الكاغد ؛ وكذلك العلم والقدرة والارادة والسمع والبصر وجميع الاسماء كلها . » وقوله في نهاية الفصوص :

« قال تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، أى لا أظهر له إلا فى صورة معتقده ، فإن شاء أطلق ، وإن شاء قيد ، فإنه المعتقدات تأخذه الحدود ، فهو الإله الذى وسعه قلب عبده ، فإن الإله المطلق لا يسهه شيء ، لأنه عين الأشياء وعين نفسه ، والشيء لا يقال فيه : يسه نفسه ولا يسهها . » وقال فى الفتوحات :

« بدء الخلق الهباء ، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحمانى ، وهو العرش الإلهى ، ولا أين يحصرها لعدم التحيز . وم وجد ؟ وجد من الحقيقة المعلومة التى لا تنصف بالوجود ولا بالعدم . وفيم وجد ؟ فى الهباء . وعلى أى مثال وجد ؟ على المثال القائم بنفس الحق المعبر عنه بالعلم به . ولم وجد ؟ لاظهار الحقائق الإلهية . وما غايته ؟ التخلص من المزجة فيعرف كل عالم حظه من منشئه من غير امتزاج ، فغايته إظهار حقائقه ومعرفة أفلاك العالم الأكبر ، وهو ما عدا الإنسان . والعالم الأصغر يعنى الإنسان روح العالم وعلته وسببه وأفلاكه ومقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته . فكما أن الإنسان عالم صغير من طريق الجسم ، كذلك هو أيضا إله حقير من طريق الحدوث ، وصح له التآله ، لأنه خليفة الله فى العالم . والعالم مسخر له مآلوه ، كما أن الإنسان مآلوه الله . »

ومن شواهد قوله بوحدة الوجود غير الذى تقدم ، قوله :

|                    |                   |                   |
|--------------------|-------------------|-------------------|
| فلولاه             | ولولانا           | لما كان الذى كانا |
| فأنا أعبدُ حقاً    | وإن الله مولانا   |                   |
| وإننا عنه فاعلم    | إذا ما قلت إنسانا |                   |
| فلا تحجب بإنسان    | فقد أعطاك برهانا  |                   |
| فكن حقاً وكن خلقاً | تكن بالله رحمانا  |                   |
| وغيـد خلقه منه     | تكن روحاً وربحانا |                   |
| فأعطيناها ما يـدو  | به فينا وأعطانا   |                   |
| فصار الأمر مقسوما  | بإيـاه وإيـانا    |                   |

مشكلة الكليات :

يعتبر ابن عربى الكليات رابطة بين الإله والانسان ، وليس لها عنده وجود خارجى ، ولكنها معقولات يدركها العقل ، وهى دائماً فى الذهن حتى فى الوقت الذى تتحقق فيه فى الشخصيات الخارجية ، غير أن ثوائها فى الذهن لا يحول بينها وبين أن تكون صماد هذه الشخصيات ، لأنها جوهرها ، ولأنها صورة للاسم الإلهى (١) .

(١) انظر صفحة ١٦١ من كتاب « النزالي » لبارون كارادى فو .

من هذا يتبين أن رأى ابن عربى فى هذه المشكلة هو ألقوة من آراء مختلفة ، فهو يتفق مع أفلاطون فى أن الكليات قد وجدت قبل الشخصيات وأنها عمادها ، ويخالفه فى أن لها وجودا ذاتيا مستقلا عن الذهن . وهو يوافق أرسطو فى أن وجودها الذهنى وجود حقيقى ، ويخالفه فى أنها منتزعة من المحسوسات . وهو متأثر بالأفلاطونية الحديثة حين يقرر أنها صورة الاسم الإلهى .

النفس :

لا يكاد رأى ابن عربى فى النفس يختلف عن آراء الفلاسفة إلا بأنه أقل ضبطا وتحديدا ، فهو يلجأ — فى إيضاحه للنفس — الى نظرية النور والظلام المألوفة فى كتب الفلاسفة الإشرافيين ، فيقرر أن الإله أوجد الانسان من عنصرين مختلفين : الأول الجسم الكشيف المظلم السلبي ، والثانى الجوهر البسيط المنير الإيجابي المنعقل الذى بمنح الأعضاء حياتها وكماها ، وهذا الجوهر هو حاكم القوى ، أو النفس المطمئنة المذكورة فى القرآن ، أو عقل الفلاسفة ، أو قلب الصوفية .

وهذه النفس خاصة بالانسان ، لأن الحيوان له نفس حيوانية وهى جسم دقيق يشبه المصباح معلق فى تجويف القلب ، والحياة والإحساس والحركة هى نوره وسطوعه ، والدم زينه ، والشهوة حرارته ، والغضب دخانه . وهذه النفس عامة فى جميع الكائنات الحية ، ولكنها ليست هى تلك القوة القديرة على الصعود الى درجة العلم أو الى معرفة الصانع ، وإنما هى كائن مادي أسير منعرض لكل ما يعتور الجسم من ضعف وقوة ونقص ونمو وتحلل . وبعبارة أدق : إن انطفاء هذا المصباح هو علة موت الجسد . أما النفس الانسانية أو القوة العاقلة ، فهى عنده إحدى قوى النفس الفلسفية العامة ، وهذه القوى هى جواهر بسيطة وصورها مفارقة للمادة .

ومن هذا يتضح أن ابن عربى يتبع رأى الإشرافيين القائل بسابقة النفس على الجسم ، وأن درجات النفوس تختلف باختلاف انغماسها فى ظلام الأجساد ، وأن إدراكها الحقائق وطموحها الى أصلها الأعلى أو ميلها الى الرغبات الجسدانية تابعة لهذه الدرجات من جهة ومتأثرة بالمجهود الشخصى من جهة أخرى . أما علمها الدنيوى فليس إلا تذكرا للعلم القديم وصعودا نحو الإله الذى فاضت عنه .

لهذا كله كانت النفس الانسانية خالدة لا تموت بموت البدن ، وإنما حين يعجز هذا البدن عن مرافقتها يدعوها الإله قائلا : ارجعى الى ربك ، فتفارق الجسم وتتجه اليه على الفور (١) . أحسب أنه لا يعسر على الباحث بعد الذى أسلفناه أن يتبين تأثر ابن عربى بأفلاطون

(١) انظر صفحتى ٢٢٣ و ٢٢٤ من الجزء الرابع من كتاب « مفكر الإسلام » للبارون كارادى نو .

في نظرية النفس ووجودها قبل البدن واستقلالها عنه بعد موته وتذكرها ما كانت قد نسيت بالغماس في ظلامه . وهذا هو ما أشرنا اليه غير مرة من أن متصوفي هذا العصر هم صنائع الفلاسفة ولا سيما الاشراقية منها ، وكل ما بينهم من فرق هو أن بعضهم كان صريحاً في آرائه والبعض الآخر قد اكتفى بالإشارات حتى لا يعرض نفسه لسخط الجماهير الذي قد يكلفه الحياة . وأن ابن عربي كان من النوع الثاني .

على أن حرصه على مجاملة رجال الدين الظاهريين واستفادته من دروس كوارث النورى والحلاج والسهروردي المقتول لم ينقذه من خصومة أولئك القوم وتشهيرهم بسبعته وعقيدته في حياته وبعد موته . ومن أشهر أولئك الخصوم : ابن تيمية والفتازانى وإبراهيم بن عمر البقاعي ، كما أنه كان له أنصار يؤيدونه ويدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة وعلم ولباقة كعبد الرزاق القاشانى والفيروز ابادى وغيرهما ؟

الدكتور محمد غنوب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

## أدب النفس

قال سفيان الثوري : من عرف نفسه لم يضره ما قاله الناس فيه .

وقيل لحكيم : أى شيء أعون للعقل بعد الطبيعة المولدة ؟ قال : أدب مكتسب .

وقال غيره : الادب أدبان : أدب الغريزة وهو الأصل ، وأدب الرواية وهو الفرع ، ولا يتفرع شيء إلا عن أصله .

وقال شاعر :

ما السيف إلا زهرة لو تركته على الخلق الأولى لما كان يقطع

وقال آخر :

ما وهب الله لأمريء هبة أفضل من عقله ومن أدبه

ما حياة الفتى فإن فقدنا فإن فقد الحياة أحسن به

وقال حكيم : إذا كان الرجل طاهر الآثواب ، سنى الآداب ، حسن المذهب ، تأدب بأدبه ، وصلاح بصلاحه جميع أهله وولده .

وقد أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسد رب الفساد إذا فسد

وسئل ديماس أى الخصال أحمد عاقبة ؟

قال : الإيمان بالله عز وجل ، وبر الوالدين ، ومحبة العلماء ، وقبول الادب .

## بين رجال الدين والفلسفة

- ٥ -

اتتهت الكلمة الرابعة من هذا البحث مع نهاية المجلد الثاني عشر لهذه المجلة الغراء ، وقد تم بها الكلام على ما كان بين رجال الدين والفلسفة في الشرق الاسلامي . واليوم نبدأ الحديث على ما كان بين هذين الطرفين في المغرب من علاقة كانت طيبة حيناً وسيئة أحياناً ، لنخلص - كما قلنا - بعد هذا الكلام على محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة ، إذ كانت هذه المحاولات أبرز جهود الفلسفة الاسلامية . ونرى أن عهد لذلك بكلمة قصيرة عن مهد الفلسفة في المغرب من الناحية السياسية .

\*\*\*

ثانياً في المغرب :

أسس عبد الرحمن الداخل بالآندلس دولة لأسرته الاموية بعد أن فول نجمها بالشرق ، إذ جاءها فاراً من الشام واستولى على حاضرتها قرطبة عام ١٣٨ هـ ؛ ثم توالى عليها أمراء وخلفاء أمويون ، نافسوا العباسيين ببغداد ، حتى زالت دولتهم بوفاة هشام المعتد بالله عام ٤٢٧ هـ عن غير وارث لعرشه . كان بعد ذلك الأمراء المتغلبون الذين عرفوا بملوك الطوائف ، وأشهرهم المعتمد على الله ملك أشبيلية ، الذي انتظم له - كما يقول المراكشي - في ملكه من بلاد الآندلس ما لم ينتظم لملك قبله من المتغلبين (١) . وبعد زوال عصر المتغلبين قامت دولة المرابطين حين تم للمليكة يوسف بن تاشفين الاستيلاء على الآندلس ، وأمر المعتمد على الله عام ٤٨٤ هـ . ثم أرسل الله على المرابطين من ثل عرشهم وهو محمد بن عبد الله بن تومرت الذي لقب فيما بعد بالمهدي ؛ فقد استطاع هو وخليفته من بعده عبد المؤمن بن علي أن يؤسسا دولة الموحدين على أنقاض دولة أسلافهم في الآندلس والمغرب ، وكان آخر ما استولى عليه عبد المؤمن مدينة مراکش بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ . وفي عهد أسرة الموحدين هذه - كما فيما سبقها من العهود - كان للعلوم الفلسفية جولات ، كما انتابها نكبات ، كان كبرها نكبة ابن رشد الذي ختم عهد ازدهار الفلسفة بالآندلس بل في البلاد الاسلامية عامة .

هذه لمحة خاطفة عن الآندلس الى نهاية القرن السادس من الناحية السياسية . أما من الناحية العلمية فسنرى أن هذه الرقعة من المملكة الاسلامية - وقد تعاقبت عليها دول مختلفة - كانت مصداقاً لبعض قوانين ابن خلدون الاجتماعية . ذلك أن هذا الفيلسوف الاجتماعي جعل

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ، طبع دوزي ، ص ٩٠

الطور الثاني من الأطوار التي تمر بها الدولة من الدول من أول قيامها الى انقراضها « طور الاستبداد ، أى استبداد الأمير على قومه والانفراد دونهم بالملك ، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والانصار (١) » ، كما يقرر في موضع آخر : « إن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران ، وتعمم الحضارة ، وإن السبب في ذلك أنه متى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في حاجة الانسان وهى العلوم والصنائع (٢) » . حقيقة إن البحث التاريخي يؤكد لنا أنه تمر بالأم فترات يكون ههها الأول فيها المحافظة على كيانها وتوطيد سلطانها ، ثم محاولة توسيع هذا السلطان . فاذا استتب لها الامر وأمنت على نفوذها وسلطانها شرعت تستكمل وسائل الأبهة والعظمة ، ومن ذلك الضرب بنصيب وافر في العلوم القديم منها والحديث .

من أجل هذا ليس من البدع أن ترى الدولة الأموية ، التي أسسها صقر قريش بالاندلس ، تعنى أول ما تعنى بتوطيد سلطانها في البلاد التي اقتطعتها من المملكة الإسلامية ، ويشغلها التوسع في هذا السلطان عن الفلسفة والعلوم ، إلا ما كان منها متعلقا بكتاب الله وسنة رسوله والفقه واللغة ، وما إلى ذلك من العلوم الإسلامية . لذلك يقول صاعد الاندلسي المتوفى عام ٤٦٢ هـ : « إن هذه البلاد استمرت بعد الفتح « لا يعنى أهلها بشيء من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة ، الى أن توطد الملك لبنى أمية بعد عهد أهلها بالفتن ، فتحرك ذوو الهمم لطلب العلوم » (٣) . وغنى عن البيان أن المراد بالعلوم التي تحرك ذوو الهمم لطلبها هى العلوم التي من جنس العلوم القديمة الفلسفية التي لم يكن للعرب إلف بها . ولشغفهم بالعلم والمعرفة لم تكفهم « الأكاديمية » - على حد تعبير المستشرقين ناشري القسم الأول من نفع الطيب - التي أنشأها بقرطبة أمراء بنى أمية ، وكان يدرس بها علم الكلام والفلسفة الى جانب العلوم الأخرى ، فرحل كثير من العلماء للشرق ( مصر والحجاز والشام والعراق ) حيث منبع العلم والعرفان ، وبلغ هؤلاء الراحلون المثات ، إلا أنه لم يكن فيهم من رحل للدراسات الفلسفية إلا القليل جدا .

وفي عهد الحكم الثاني المستنصر بالله ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ( ٩٦١ - ٩٧٦ م ) بدأت العلوم الفلسفية تأخذ مركزها الحقيقة به ، فان هذا الخليفة أخذ المجد الأدبي بشغاف قلبه أكثر من المجد الحربى الذى فتن أباه عبد الرحمن الناصر ، فكان له نخر افتتاح هذه الدراسات العالية وتمهيد سبلها للراغبين ، وجمع ما ألف فيها من كل نواحي الأرض وأقطارها ، حتى كان - كما

(١) المقدمة ، طبع مصر عام ١٣٢٢ ، ص ١٣٨ . (٢) المرجع نفسه ص ٣٤٤ .

(٣) طبقات الأمم طبع مصر ص ٧١

يقول المقرئ : « يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ، بأذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت بها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد أثر ذلك على لذات الملوك » (١) . واجتمع له من عيون الأسفار والمؤلفات أربعون ألفا من المجلدات (٢) . وكان يذكي هذه الجهود ، ويدفع هذه الحركة العلمية للإمام بقوة ، ما ران من التسامح الذي - كما يقول « رينان » الفيلسوف الفرنسي المعروف - لا يكاد العصر الحديث يعرف له مثيلا : « مسيحيون ويهود ومسلمون يتكلمون لغة واحدة ، ويتناشدون شعرا واحدا ، ويتعاونون على الدراسات العلمية والأدبية . لقد أمتحت كل الحواجز التي كانت تفصل الناس ، وصار الجميع يتعاونون لإقامة صرح التمدن المشترك ، كما غدت مساجد قرطبة بتلاميذها الذين يعدون بالآلاف مركز الدراسات العلمية والفلسفية » (٣) .

على أن هذه النهضة الفنية التي وقف عليها الحكم جهوده وحياته ، قضى عليها ولما تشب عن الطوق ، والعهد الذهبي للدراسات العلمية والفلسفية لم يستمر طويلا . لقد تحالفت عوامل مختلفة على هدم الصرح العالى الذى أقامه الحكم للعلم والفلسفة بقرطبة ، وإطفاء ذلك المصباح الوهاج الذى كان ينير السبيل لراغبي هذه الدراسات . ذلك أنه بعد وفاة الحكم المستنصر بالله عام ٣٦٦ هـ خلفه ابنه هشام المؤيد ، وكان غلاما حدثا ، فاستبد به وبالمملك الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر بمؤازرة والدته الخليفة . ولم يكن لهذا المستبد ، حفاظا على نفوذه وسلطته ، بد من استئالة العامة اليه ولم جميع عناصر الشعب حوله ؛ فاستجاب إذن لجهل الجمهور وتعصب الفقهاء ، وعمد أول تغلبه على السلطة الى خزائن الكتب العلمية - التى بذل الحكم عمره وكل ما يملك فى جمعها - وأفرز ، بمحض من أهل العلم والدين ، ما فيها من كتب علوم الأوائل القديمة ، ما عدا كتب الطب والحساب ، وبعد ذلك أمر بإعدامها : « فأحرق بعضها ، وطرح بعضها فى آبار القصر ، وهبل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغيرات . فعل ذلك تحببا الى عوام الأندلس ، وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهمها عندهم بالخروج عن الملة ، ومظنوننا به الإلحاد فى الشريعة » (٤) .

هل ارتكب الحاجب المنصور هذا الجرم استئالة للعامة وفقهاء الأندلس استبقاء لسلطانه ، مع مشاركته فى هذه العلوم سرا ، كما يشير الى ذلك المقرئ نقلا عن ابن سعيد (٥) ؟ أو كان ، وهو رجل حرب ، يكره هذه العلوم التى قد تعارض الدين وتؤدى لافتراق الكلمة ، والتى

(١) نفح الطيب نشر دوزى وزملائه ج ١ ص ٢٥٦ . (٢) المرجع نفسه .

(٣) ابن رشد ومذهبه (Averroès et l'averroisme) ص ٤ .

(٤) طبقات الأئم ص ٧٦ . (٥) نفح الطيب ، الطبعة المذكورة ، ج ١ ص ١٣٦ .

في العلوم الإسلامية غنى عنها ، ففعل ما فعل بقلب راض ؟ لا يهمنا كثيرا تبين عوامل هذا الحادث — مع ما في ذلك من العسر — وإن كان له دلالة الخطيرة ، وإنما المهم أن نسجل هنا أمرين لهما مغزاهما :

١ — إن أهل الأندلس في ذلك العصر كانوا يعتبرون الفلسفة رجسا من عمل الشيطان . يدلنا على هذا ما نقلناه عن صاحب طبقات الأمم ، وما ذكره صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد ، في أثناء بيانه حال أهل الأندلس في فنون العلم ، من أن « كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لها حظا عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة . فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه ؛ فإن زل في شبهة رجوه ، أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا للعامة . وكثيرا ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرب المنصور ابن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه » (١) .

٢ — إنه لهذا ، وبعد مرسوم الحاجب المنصور الخاص بتحريم الاشتغال بالفلسفة ، صار الذين يشتغلون بها يستخفون حتى عن أصدقائهم الحميمين ، كما كان الذين استمروا يجمعون شعلة التفلسف عرضة كذلك لكثير من المحن وللفقدان الحياة . لقد جاء في ترجمة ابن باجة المتوفى عام ٥٣٣ هـ أنه كان « علامة وقته وأوحد زمانه ، وبلى نمجن كثيرة وشناطات من العوام ، وقصدوا هلاكه مرات ، وسلمه الله منهم » (٢) . كما أن مالك بن وهيب الأشبيلي ، وكان معاصرا لابن باجة ، « أضرب عن النظر في هذه العلوم ( أعنى علوم الأوائل ) ، وعن التكلم فيها ، لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها » . (٣) ولم يقتصر الاضطهاد على الفلسفة ، بل إن علم الكلام أيضا كان له من ذلك حظ وافر في فترات مختلفة ؛ ها هو ذا علي بن يوسف بن تاشفين المتوفى عام ٥٣٧ هـ لما تولى الملك بعد أبيه قُرب إليه الفقهاء وصار لا يقطع أمرا دونهم ، فانتهزوا الفرصة وقرروا عنده تقبيح علم الكلام وأنه بدعة في الدين ربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، حتى استحکم — كما يقول المراكشي — في نفسه بغضه ، فشدد في نبذه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ، حتى إنه لما دخلت كتب حجة الاسلام الغزالي المغرب أمر بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم واستنصال المال ، إلى من وجد عنده شيء منها » (٤) . ولا عجب بعد هذا إن رأينا في أيام المرابطين المغالين في التمسك بالدين أن الفلاسفة كانوا عرضة للاضطهاد والقتل إذا هم جاهرُوا بأرائهم (٥) .

(١) المرجع نفسه . (٢) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٢ . (٣) نفسه ج ٢ ص ٦٣ .

(٤) المعجب ، الطبعة السابقة ، ١٢٣ . (٥) تاريخ الفلسفة في الاسلام للمشرق

الهولندي دي بور ص ٢٤٠ من الترجمة العربية .

على أن دولة الموحدين التي خلفت أسرة المرابطين ، والتي عرف بعض أفرادها بمناصرة الفلسفة والفلاسفة ، كان منها المنصور أبو يوسف يعقوب الذي ولى عام ٥٨٥ هـ والذي قصد ألا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده ، وأباد كثيراً منها بالنار ، وتوعد بكبير الضرر من يضبط مشغلاً بهذه العلوم أو عنده شيء من كتبها (١) . وقد استمر الحال كذلك — إلا في فترات قصيرة — إلى أيام أبي الوليد بن رشد ؛ فقد روى لنا المراكشي خبر أول اتصال بينه وبين أمير المؤمنين أبي يعقوب ، ومنه نعلم أنه عند ما دخل فيلسوف قرطبة على الخليفة وجده وابن طفيل وحدهما ، وبعد أن سأله — ليفرخ روعه — عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، قال : ما رأيهم — أى الفلاسفة — في السماء ؟ أقديمة هي أم حادثة ؟ وهنا يقول ابن رشد : إنه أدركه الحياء والخوف ، وأخذ يتعلل وينكر اشتغاله بالفلسفة . (٢)

ولكن مهما كانت الأدلة متوافرة وقوية على ما كانت من كراهة للفلسفة واضطهاد للفلاسفة بالمغرب والأندلس ، فإن الباحث المنصف لا يسهو أن يهمل أموراً أخرى لها قيمتها ولها دلالتها على أن تلك الاضطهادات لم تزد العلوم الفلسفية إلا تأصلاً ، ولا الفكر الحر إلا أنصاراً ، مستخفين تارة ومجاهرين أخرى .

ذلك أنه أفلت من فتنة الحجاب المنصور بعض الكتب العلمية والفلسفية ، وظلت وأمثالها تنتقل من يد ليد سراً مرة وجهاً أخرى ، وأحب شيء إلى الإنسان ما منعاً ! وساعد على هذا اشتغال ملوك قرطبة والقابضين على السلطان ، بالحرب الأهلية والاضطرابات والثورات من الخارجين عليهم ، عن تعقب من يعنى بالدراسات النظرية الفلسفية (٣) . يضاف لهذه العوامل أن بعض الأمراء الذين ولوا الحكم بالأندلس كانوا يضمرون حب التفلسف ويشجعون على ذلك سرا أحياناً ، وأحياناً أخرى كان هؤلاء يلقون لديهم نصيباً كبيراً من التشجيع والحماية جهراً . وفي الكلمة الآتية تنمة الحديث عن الفلسفة وحظها في المغرب والأندلس ، إن شاء الله تعالى ؟

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٩ . (٢) المعجب ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) طبقات الأمم ص ٧٦

## باب الأسئلة والفتاوى

### في الوقف

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

وقف الشيخ عشرين أبو ليله ابن محمد أبو ليله من أهالى المحلة الكبرى أرضا مبينة بحجة الوقف الصادرة من محكمة المحلة الكبرى فى ١٨ رمضان سنة ١٢٨٠ على أولاده ذكورا وإناثا للذكر مثل حظ الأنثيين على حسب الفريضة الشرعية ، ثم من بعدهم على أولادهم وأولاد أولادهم بنظام بينه فى تلك الحجة ، على أن الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره . وشرط لنفسه أيام حياته الإيعطاء والحرمان ، والتغيير والتبديل ، والبديل والاستبدال .

وبمقتضى إعلان شرعى من نفس المحكمة مؤرخ ٢٨ ربيع آخر سنة ١٣٠٦ أدخل الواقف المذكور ولد ولد الشيخ ابراهيم أبو ليله ابن الحاج محمد أبو ليله ابن الشيخ عشرين الواقف المذكور ، وجعل له مثل ما لأحد أولاده المذكور فى جميع تلك الاطيان الموقوفة ، وأخرج كلا من أولاده عبد الرحمن وعبد الحميد وصديقه ، وجعل لهم نفقة دراهم .

ثم مات الواقف ومات أولاده ، ومات ابن ابنه الشيخ ابراهيم المذكور عن بنتين هما ( فرح وآمنة ) ، فهل ينتقل نصيب والدهما الشيخ ابراهيم المدخل المذكور اليهما بمقتضى شروط الواقف المذكور ، وتصيران بذلك مستحقين لنصيب والدهما ، ويكون لهما حق مطالبة الناظر عليه بهذا النصيب ؟

نرجو التكرم بالجواب ولكم الاجر والثواب ما  
محمد كامل أبو جهه  
بالمحلة الكبرى

الجواب :

اطلعت اللجنة على حجة الوقف الصادرة من محكمة المحلة الكبرى المؤرخة فى ١٨ رمضان سنة ١٢٨٠ هجرية ، والتي نص فيها على ما يأتى :

أولاً - إن الشيخ عشرين أبو ليله وقف قطعتين من الأرض إحداها ستة وتسعون فدانا وكسور ، والثانية اثنا عشر فدانا ، وكلتاها مبينة الحدود بحجة الوقف .

ثانياً — إن هذه الأرض الموقوفة حبست على أولاده ذكورا كانوا أو إناثا للذكر مثل حظ الأنثيين ، ثم من بعدهم على أولادهم وأولاد أولادهم إلى آخر ما هو مبين بالحجة المذكورة .  
ثالثاً — إن من يموت منهم بعد الاستحقاق ويترك ولداً أو ولد ولد أو أسفل من ذلك ينتقل نصيبه إلى ولده أو ولد ولده .

رابعاً — إن الطبقة العليا تحجب الطبقة السفلى بحيث يحجب كل أصل فرعاً دون فرع غيره .

خامساً — إن الواقف جعل لنفسه شروطاً منها الإدخال والإخراج وغير ذلك .  
واطلعت اللجنة كذلك على إعلام شرعى صادر من محكمة المحلة الكبرى بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦ نص فيه على أن الشيخ عشرينى أبو ليلة الواقف للأرض المبينة في الحجة المتقدمة الذكر قد أدخل في وقفه المذكور ولد ولده الشيخ إبراهيم أبو ليلة ابن الحاج محمد أبو ليلة وجعل له مثل ما لأحد أولاده المذكور في جميع تلك الأطنان .

وحيث تبين من الاستفتاء أن الشيخ إبراهيم أبو ليلة قد بقى حياً بعد وفاة الواقف ،  
فبناءً على ذلك كله :

أولاً — يكون للشيخ إبراهيم أبو ليلة في وقف جده الشيخ عشرينى أبو ليلة ما لأحد أولاد الواقف المذكور في الأطنان بمقتضى الإعلام الشرعى الصادر بإدخاله .

ثانياً — ومن حيث إنه قد نص الواقف في حجة الوقف الصادرة بتاريخ ١٨ رمضان سنة ١٢٨٠ على أن من مات بعد الاستحقاق ينتقل نصيبه إلى ولده أو ولد ولده ، وهو نص ينطبق تماماً على « فرح وآمونه » بنتى الشيخ إبراهيم المذكور ،

لذلك يكون لبنتى الشيخ إبراهيم المذكور « فرح وآمونه » نصيب أبيهما مناصفة بينهما ،  
ولهما حق مطالبة الناظر بذلك . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

## مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الاسلامية والشرائع الأخرى

- ٦ -

قرأت الكثير مما ورد في بعض الشرائع غير الاسلامية وأطلت النظر فيه فلم أجد بعض ما وجدته في الشريعة الاسلامية من الأصول القويمة ، والمبادئ الكريمة ، والمقاصد الشريفة والغايات النبيلة ، للوصول الى حقيقة العدالة ، فضلاً عما تحلت به من الرحمة والبر والمساواة واليسر . خذ مثلاً ما كان عليه رب الأسرة في الدولة الرومانية في عصرها الأول ، أي قبل العصر العلمي عصر التطور والفتح القانوني ، تجد أنه كان يخضع له كل من بالبت خضوعاً عسكرياً ، وهو لا يخضع لأحد . فكان له أن يقتل ولده أو أن يعذبه أو ينفسه أو يبيعه أو يبدل صفته الحقوقية باخراجه من أسرته وإخاذه بأسرة جديدة بطريق التبن . وهو وحده الذي يقرر عند ولادته ضمه اليه أو نبذه ، دون أن يتقيد برأى لغيره ؛ وكان كل مال الأسرة له يتصرف فيه كما يشاء حال حياته ، وبعد مماته بطريق الوصية ، وله أن يحرم أولاده من الميراث ، وله أن يفضل بعضهم على بعض ، دون أن يقف في طريقه أحد ، وله أن يزوج أولاده بمن شاء دون الحصول على رضائهم . سلطة مطلقة لا قيد لها ولا حد . فهو سيد من في البيت من أبناء وبنات ونساء وأرقاء . يقف ابنه أمامه مكتوف اليدين مسلوب الحقوق جميعها ، ليست له شخصية مدنية ولا صفة حقوقية . وفي اعتقادهم أن هذه القيود لم توضع لمصلحة الابن أو لمنفعة الوالد ، بل لمصلحة الأسرة التي تتكون من مجموعها الدولة . ولا حق للشارع في التدخل في سلطة رب الأسرة . فلله أن ينظمها ، ولا له أن يهذبها ، ولا أن يغير شيئاً منها ، لأن مصدرها الأول العادة المعروفة قبل تأسيس روما .

ولكن جاء قانون الألواح الاثني عشر فخذ من حقوق رب الأسرة ، وقرر أن الولد الذي يباع ثلاث مرات يحرر من سلطان أبيه . ولما أن اتسع نطاق الدولة الرومانية بالفتوحات الواسعة في إيطاليا وأفريقيا ، وضعت قيود كثيرة تحد من سلطة رب الأسرة ، فحرم عليه نبذ مولوده ، وسلبت منه سلطة بيع أولاده ، اللهم إلا عند الضرورة الملجئة ، كعدم القدرة على الاتفاق عليهم . كما أنه جعل للابن أن يشتري نفسه من مشتره بأن يعمل له بقدر ما قد يكون دفعه ثمنه له ، كما قد سلب أيضاً من رب الأسرة حق إعدام الولد ، وجعل العقاب على الجرائم من حق القضاء ، وحرم عليه أيضاً تزويج أبنائه بغير رضائهم ، وقرر أن على الوالد مساعدة ولده بقدر حالته ، وأن للولد أن يطالب أباه بالنفقة ، وأن يلجأ للقضاء منتظماً من سوء المعاملة .

وكذلك حرم عليه حرمان ورثته من الميراث بغير حق إذ التزم بحق الواجب الأبوي أن يترك لهم جزءا لا أقل من الربع ، وصمى هذا الجزء بالربع الشرعى .

هذا بعض ما كان عند الرومان ، فانظر الى ما يقابله في الشريعة الاسلامية الغراء ، وقارن بين هذا وذاك ليتبين لك الصحيح من الفاسد والفت من السمين . انظر تر العدل مجسما ، والحقوق مقررة ، والرحمة شاملة ، والبر متوافرا : نظرت شريعة الاسلام الى الأسرة نظرة سامية فجعلتها عضوا في جسم المجتمع ، إن صلحت قوى الجسم كله ، وإن فسدت اعتل الجسم وفسد ، والامة مجموعة أسر تقوى بقوتها ، وتضعف بضعفها ، فوضعت الحقوق ، وقررت الواجبات التي تكفل السعادة ، وتضمن السلامة ، وتقيم الحياة على أساس متين من المحبة والوفاء ، فجعلت للآباء على الأبناء حقوقا ، كما جعلت لهؤلاء على أولئك حقوقا ؛ فحمد صلوات الله عليه رسول الهدى ونبي الرحمة وإمام الحكمة وزعيم العدل قال في صراحة لا تقبل التأويل ووضوح لا خفاء فيه ولا إبهام ، حينما سأله رجل بقوله : « من أبر ؟ » فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا « بر والديك » ، قال : « ليس لي والدان » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بر ولدك ، كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من حق الولد على والده أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » . وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله سائل كل راع عما استرعى حفظ أم ضيع ، حتى ليسأل الرجل عن أهل بيته » . وقيل إن رجلا جاء لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكوه عقوق ولده ، فأرسل عمر رضى الله عنه في طلب الولد وسأله ، فقال الولد « إن أبى عفى بأن سماني باسم قبيح ويناديني به بين الناس ، ولم يتخير أمى ، ولم يعلمنى » . فغضب عمر لذلك وقال للرجل : « جئت تشكو الى ولدك وقد عققته قبل أن يعقك ، إن من حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويختار أمه ويعلمه القرآن » .

حق الحياة وحق الأبناء على الآباء وحق الحرية وحق الملك وحق المساواة وسائر الحقوق كلها قدرتها الشريعة الاسلامية وقررتها .

اعتبرت الشريعة الاسلامية قتل الأولاد كالشرك بالله ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سأله ابن مسعود : « أى الذنب أعظم يا رسول الله ؟ » ، قال صلى الله عليه وسلم : « أن تجعل الله ندا وهو خلقك » ، قال : « ثم أى ؟ » قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » . وقد كان وأد البنات وقتل الأبناء منتشرا في الجاهلية مخافة عار يتوهمونه أو إملاق يتوقعونه ، فنهى الله تبارك وتعالى عن ذلك بقوله عز وجل : « وإذ الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت » ، وبقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئا كبيرا » . وكما نهى تعالى عما ذكر كذلك نهى عن قتل النفس بغير الحق ، بقوله جل شأنه : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » .

قلنا إن رب الأسرة الرومانية كان له أن يبيع أولاده أو أن ينفبهم أو أن يمزبهم ، ولكن الشريعة الإسلامية تلزم الآباء أن يسهروا على تربية أبنائهم وبناتهم ، وأن يحوطوهم بالعناية والرعاية ، وأن يقوموا على تربيتهم لتكون تربيتهم صالحة نافعة مفيدة ، تهذب الأخلاق وتنقف العقول ، وتقوى ملكة التفكير ، وتحول بينهم وبين الشر ، وتبعدهم عن قرناء السوء حتى ينشأوا ويشبوا على المبادئ القويمة والأخلاق السليمة الصالحة ، فيكونون رجالا نافعين لأنفسهم ، صالحين لأنهم ، ساهرين على سعادتها ورفقها ، عاملين على رفع شأن دينهم . قال صلى الله عليه وسلم : « أئزموأ أولادكم الصلاة وأحسنوا أذبهم » . وقال صلى الله عليه وسلم في شأن التربية الدينية والخلقية : « مروأ أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع » .

وكانت تربيته صلى الله عليه وسلم لأولاده المثل الأعلى للكمال والأخلاق ، فقد قال لابنته فاطمة أمراً محذراً : « يا فاطمة اعملى فوا لله لاغنى عنك من الله شيئا » ، وسألها صلى الله عليه وسلم مرة قائلا « يا فاطمة أى شىء خير للمرأة ؟ » فقالت : « ألا ترى رجلا ولا يراها رجل » ، فضمها الى صدره وتلا قول الله عز وجل : « ذريةٌ بعضاها من بعض » . وقال الله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » ، قال ابن عباس رضى الله عنه مفسرا لهذه الآية الكريمة : « مروأ أولادكم بامثال الأوامر واجتناب النواهي فذلك وقاية لكم ولهم من النار » .

أما الرفق بالأبناء والرحمة بهم ، والعطف عليهم ، فقد حث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « رحم الله امرأ أعان ولده على بره ، إن لم يحمله على العقوق بسوء عمله » . ورأى الأقرع بن حابس النبى صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن رضى الله عنه فقال : « يا رسول الله لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن من لا يرحم لا يرحم » .

أما حق المساواة الذى فى إهماله انحلال الأسرة وتفكك عراها وتمزيق وحدتها وتطير شر الفرقة بين أعضائها ، فقد نبذته الشريعة الرومانية ، إذ كان رب الأسرة بمحض إرادته وبغير سلطان عليه يخصص ويعمم ، ويعطى ويحرم ، ولكن الشريعة الإسلامية رأت فى رعايته والقيام به سعادة الأسرة وكمال هنائها ، فسوت بين الأبناء فى المعاملة والنفقة ، بل وفى الصلات والهبات ، بدليل ما ورد أن النعمان بن بشير قال « تصدق أبى على بعض ماله ، فقالت أمى صمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق أبى الى النبى صلى الله عليه وسلم يشهده على صدقته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ قال لا : قال : اتقوا الله واعدوا فى أولادكم . فرجع أبى فرد تلك الصدقة » رواه مسلم . وفى رواية

أخرى : « فلا تشهدني إذا فاني لا أشهد على جور » ، وفي رواية ثالثة : « ألسنت تريد منهم البر مثل ما تريد من ذا ؟ قال : بلى ، قال : فاني لا أشهد » .

في الشريعة الرومانية لا حرية لأحد في الرأي ولا في العقيدة ولا في المال ، بل الكل خاضعون لرب الأسرة . ولكن الشريعة الإسلامية طالبت كل ذي عقل أن ينظر بنفسه ويفكر في خلق السموات والأرض ليصل من هذا التفكير وذلك النظر إلى معرفة الحق بنفسه معرفة تثبيت ويقين ، لا معرفة شك تتزعزع أمام العواصف ، أو تزول عند ظهور الفتن . وإن كثيرا من آيات الذكر الحكيم لتدل على ذلك ، فقد قال تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد شد وثاق ولده الكافر ، وقال لا أحله حتى يسلم ، فنزل قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . ولقد شنع القرآن الكريم في كثير من المواضع على من فلدوا ووقفوا عندما ألفوا بغير تدبر ولا تفكير ، من ذلك قوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجابهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ » ، وقوله عز شأنه : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

قلنا إن رب الأسرة الرومانية كان هو المالك الوحيد لأموال الأسرة ، وإنه ليست للأولاد مال في حال حياة أبيهم ، ولكن الشريعة الإسلامية قررت للأبن كل الحق في أن يملك ما يشاء من مال مستقلا عن والده ، وليس لأبيه أن يأخذه أو أن يستولى عليه قهرا عنه ، بل الولد حر في التصرف في ماله يبده إن شاء ، وينتفع به وينمي إن أراد ، فلا يملك الأب أن يتصرف في مال ولده ببيع أو رهن أو غير ذلك بغير إذن من الولد . نعم جعل للأباء حق الولاية على الأبناء ، ولكن ذلك قبل أن يبلغوا سن الرشد . أما إذا بلغوه فللابن أن يحاسب أباه على ما استولى عليه ويسترد منه كل حقوقه . وقد أباحت الشريعة للأباء الرجوع على أولادهم للاتفاق عليهم في حالة فقرهم وعجزهم عن الكسب ، ولكن بقدر ما يسد الحاجة ويدفع الضرورة .

هذه مقارنات ومقابلات جئنا بها من الشريعتين الإسلامية والرومانية التي هي في نظر الجميع محل التقدير والتقدير ، وقد تبين بعد الشقة بين الاثنين . فأى مكارم أمام هذه الحقائق التاريخية يستطيع أن يفضل ولو ناحية واحدة على الشريعة الإسلامية ؟ أما أن لهذه العقول الجبارة والبصائر النيرة التي ملأت العالم معارف قيمة ، ومكتشفات نافعة أن يتأملوا في مثل هذه المقارنة فلا يدعوا نفرا منهم أن يدعوا أن الشريعة الإسلامية مستمدة من الشريعة الرومانية . وسيرد عليك من ضروب المقارنات ما يريك أن هذه الشبهة من الهراء الذي يجبل عن مثله العلماء ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد

المندوب القضائي بالأوقاف الملكية سابقا

# مخبر في المسألة الاقتصادية

زيادة عدد سكان العالم وآثارها الاقتصادية وأثر الحرب فيها  
إحصاءات فيها عبرة لأولى الألباب

لاحظ الأستاذ ( مائس ) أن عدد سكان العالم يتضاعف كل ربع قرن . وقرر الأستاذ ( توسيج ) أن سكان العالم آخذون في الزيادة بمعدل ١١ مليون نفس سنويا ، وعدد الآن ١٩٠٠ مليون نسمة ، فإذا استمرت الزيادة بهذه النسبة فسوف يصبح عدد السكان في سنة ٢٠٤٠ أربعة آلاف مليون نسمة ، وبعد مائتي سنة ثمانية آلاف مليون نسمة ، وبعد ثلثمائة سنة ستة عشر ألف مليون نسمة ؛ ويعمل الأستاذ توسيج ذلك بزيادة نسبة المواليد على نسبة الوفيات في كل عام ، ويقول إن النهاية العظمى لمعدل المواليد في بيئة عادية تبلغ ٤٥ في الألف بينما تقل النهاية الصغرى لنسبة الوفيات فيها عن ١٥ في الألف ، فتكون زيادة السكان سنويا حوالى ٣٠ في الألف . إلا أن الأستاذ مائس يقول : إن الاستمرار في هذه الزيادة وبهذه النسبة لا يمكن أن يكون ، لأن الأرض لا تتسع لإيواء وتغذية أكثر من سبعة ألاف مليون نسمة ، وتكون عندئذ في حالة تشبع (١) ويعيش الناس على سطحها معيشة السواثم ، يتنازعون على وسائل التغذية الرديئة ، ويعودون بجنسهم الى الحالة الفطرية الاولى ، وتندهور مدنياتهم نحو الهمجية ، ويلغون من الرخص والهوان مبلغ الانسان في مجاهل افريقيا ، وتكون نسبتهم بالنسبة للمواد الغذائية الممكن الحصول عليها وقتئذ كنسبة ٤٠٩٦ الى ١٣

ثم إن إنتاج المواد الغذائية لا بد أن يخضع لقانون تناقص الغلة الذى مؤداه أنه ما دامت مساحة الأرض محدودة فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة أن تكون كمية المنتجات التى تستخرج منها محدودة كذلك . كما أن الانتاج الزراعى محدود بكمية المواد المعدنية اللازمة لحياة النبات ،

(١) حالة التشبع في العلم هى التى لا يمكن تجاوزها . مثاله : لو وضعت ملحاً في ماء أذابه فلوزدت من الملح ذاب كسابقه ، ولكن الى غير حد ، فانك قد تضع فيه مقدارا آخر من الملح فلا يذوب ويبقى كما هو . فى هذه الحالة يقال إنه قد تشبع من الملح فلا يقوى على إذابة مقدار آخر منه .

فإن كل قطعة من الأرض حتى الأكثر خصوبة منها ، تحتوى على مقدار معين محدود من النيتروجين والبوتاس والفوسفور وغيره ، وكل محصول يستنفد جزءا من هذه المواد ؛ ومع نجاح أرباب الزراعة فى رد العناصر التى استنفدت من الأرض إليها وزيادة خصوبتها بإضافة عناصر أخرى جديدة إليها ، فإن الموارد التى يحصل منها الفلاح على هذه العناصر محدودة ، لأن مناجم الفوسفور قد استغلت منها كميات هائلة حتى أصبح ما يستخرج منه سنويا لا يكفى لفلاحة الأرض خصوصا بعد زراعتها عدة مرات فى السنة ، ولذلك بدأوا يستعيضون عنه بالنيتروجين يأخذون جزءا منه من الهواء لعمل سماد صناعى . ويرى الاقتصاديون فى هذا العمل خطرا جسيما سوف يظهر بعد عشرات القرون ، وذلك بتغيير نسب مركبات الهواء ، ولذلك يقول الأستاذ آرمسترانج : « إن استعمال النيتروجين يجعلنا نتقرب من الدمار بدلا من أن ينقذنا منه ، فقد كانت الكمية المستخرجة منه ٣٥٢ ألف طن متري فى سنة ١٩٠٣ بلغت مليونى طن فى سنة ١٩٢٨ منها ١٠١٩٢٠٠ طن استخرجت من نيتروجين الهواء » .

كذلك عدد الماشية آخذ فى التناقص لكثرة ما يذبح منها يوميا فى المجازر الكبرى ، ولا يعود ضرر ذلك فقط على الإنسان من الوجبة الغذائية ، ولكن يفقده أيضا مساعدا له أهميته الكبرى فى شئون الزراعة .

ويقول الأستاذ توسيج : إنه ولو أن هناك مساحات واسعة من الأرض لم تزرع ولم تستغل ، وممكن فلاحتها واستغلالها ، وأخرى مازالت تحت التجارب والبحث لزيادة إنتاجها ، فإنها ليست بذات قيمة كبيرة بالنسبة لعدد السكان المتزايد ، ولا تكفى لسد حاجة الأجيال المقبلة ، وبضرب لذلك مثلا بالخبز : فقد كانت عدد سكان العالم البيض من آكلى الخبز منذ قرن مائتى مليون نسمة ، فزادوا اليوم على سبعمائة مليون نسمة ، أى أن عددهم زاد أكثر من ثلاثة أضعاف ما كان عليه ، بينما لم تبلغ زيادة إنتاج الغلال فى هذه المدة أكثر من الضعف مع اتساع مساحة الأراضى المزروعة قححا ، وزراعتها عدة مرات فى السنة . حقيقة إن الإنسان لا يعيش على الخبز فقط ، بل إنه لسبيل استبدال أصناف أخرى نشوية وغيرها به ، حتى قلت الكمية المستهلكة منه ، ومع ذلك فإن كل أنواع الطعام المعروفة ، أو التى سيوجد العلم والاختراع ، إنما تصنع وتبعا من نفس المواد الغذائية التى توجد بكميات محدودة .

كان نتيجة ذلك أن تشاء مالتس وأنصاره ، ودعوا لضرورة ضغط ظاهرة ميل عدد السكان الى الزيادة ، حتى يمكن ضمان رفاهية الناس لتحسين حالتهم ، والمحافظة على الأجور المرتفعة ، وزيادة المقدرة الانتاجية للزراعة والصناعة ، فقال مالتس : « لو تغلبت الحكمة على الناس لما أقدموا على الزواج حتى يتأكدوا من أنهم صاروا فى مركز يقدرون على العناية بتربية أطفالهم وإسعادهم » .

سرت هذه الآراء في البيئات المتعلمة المتمدنة حيث ارتفع مستوى المعيشة بين الأفراد ، وأصبح كل واحد منهم يعمل في حدود مصلحته الذاتية ، متخذاً كل وسيلة لتأخير سن الزواج ، أو منع الحمل ، محافظة على مستواه الرأقي ، أو لرفعه الى مستوى أعلى .

هذا وقد أدى تركيز السكان في المناطق الصناعية ، وازدحامهم حول المناجم ومساقط الماء والمصانع الضخمة ، للقيام بأعمال الانتاج الكبير ، الى ارتفاع نسبة الوفيات ، نتيجة لما يعانيه السكان من سوء التغذية ، ورداءة المأوى ، وقلة الدفء . لذلك قام رعاة القومية ، وأصحاب النظريات الاستعمارية في انجلترا وفرنسا وإيطاليا يحضون على كثرة التناسل وزيادة الذرية والعناية بالصحة العامة .

وأخيراً جد في العالم حدث خطير سيكون له أثر فعال في نقص عدد السكان ، وهو الحرب العالمية الراهنة التي يقذف في أوتونها ملايين من زهرة شباب المقاتلين لتحصد أرواحهم في ساحات الوغى ، غير الملايين الأخرى التي تجند وتجهز بعيداً عن الحياة المدنية ، وغير الملايين الأخرى من المدنيين الذين يذهبون ضحية الغارات الجوية ، وبذلك تضعف قوة العالم التناسلية ، وتنحط نسبة المواليد لدرجة خطيرة . ناهيك عن تحويل الأفكار عن فكرة التناسل وانصراف الناس إما الى القتال ، وإما الى السعى للخلاص والنجاة كل بنفسه .

ويصحب الحروب عادة انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة ، وهذا ما بدأنا نسمع عن ظهوره في رومانيا وغيرها من بلاد شرق أوروبا ، نتيجة تلوث الماء والهواء بالجراثيم المنبعثة من جثث القتلى .

يرحب أصحاب النظرية التشاؤمية بالحروب والأمراض والأوبئة ، ويعتبرونها العامل السلبي المهم لانقاص عدد سكان العالم الى النسبة التي يتوازن بها مع نسبة المواد الغذائية . إلا أنه فاتهم أن هذه الحروب تهدد العالم بوقف دولاب الإنتاج في المستقبل بما تسببه من تعطيل وسائل الانتاج ، وتخريب موارد الثروة ، وإبادة محاصيل ومزروعات جمة ، وإنفاق رهوس الأموال ، وتحويل المصانع لصنع أدوات القتال والتدمير .

وكان يوجد قبل هذه الحرب نفر من الاقتصاديين يدعون الى حرية التجارة ، وتسهيل المعاملات الاقتصادية ، بإباحة الواردات ، وتشجيع الصادرات ، ويعيبون على المنتجين وأصحاب رهوس الأموال تحديدهم كمية الانتاج الزراعي والصناعي ، وعلى الحكومات فرضها الرسوم الجركية المرتفعة لمنع دخول المنتجات الأجنبية ، محافظة على مستوى الاسعار لفائدة كبار أصحاب رهوس الأموال ، ولحماية الصناعة المحلية ، دون أن يراعوا حاجة الجمهور من هذه السلع والمنتجات التي هم محرومون منها ، وفي حاجة شديدة لإشباع رغباتهم منها .

وفي ذلك يقول الأستاذ رايموند ب فوسديك : « قد زاد البشر الى مشاكلهم تلك الحروب

الجركية ، والرقابة الشديدة ، والمنافسة الحادة ، ومئات أخرى من المحظورات الدولية الخارقة التي تركت نصف العالم في مجاعة ، بينما ينعم الباقون بوفرة الغذاء . فبينما يجوع شرق أوروبا يستعمل الفلاحون في الغرب الأوسط منها القمح كوقود ، وبينما آسيا لا تجد الغذاء الكافي ينلس الأمريكان الأسواق لتصريف منتجاتهم .

ويعقب الأستاذ توسيع على ذلك بقوله : « إن ارتفاع نسبة المواليد وانتشار الفقر في الجهات مثل وسط وشرق أوروبا وآسيا وغيرها من البيئات الصناعية ، ظاهران متلازمان متسببتان إحداهما عن الأخرى ، فزيادة نسبة المواليد يعنى الفقر ، والفقر يزيد نسبة المواليد ، لأنه عندما يكون الانسان فقيرا فاقد كل أمل في التخلص من فقره ، يتناسل بدون تفكير في المستقبل ، وهذه الخصوبة التناسلية نفسها تقف عثرة في سبيل المستقبل . هذا وتستخدم النساء والأطفال بكثرة في المصانع والمعامل ، لأن الناس كثيرون والأجور منخفضة ، وهذا يدعو الى زيادة التناسل حتى تضمن الأسرة دخلا يكفي حاجاتها ، يتكون من أجرة الأم وأبنائها ، وبذلك تنهيا أسباب الفاقة والفساد الخلقي ، مع الضعف الجسماني وقصر الأعمار .

وقد اشتدت هذه الحالة منذ أن استولى الدكتاتوريون على زمام الحكم في بعض جهات أوروبا ، فقد حولوا جميع الصناعات والمواد الخام ، حتى اللازمة لانتاج سلع الاستهلاك ، الى صناعات رأسمالية ، لإنتاج العدد والآلات الضخمة ، وظهرت آثار ذلك في ألوف الطائرات والدبابات والمدافع والأساطيل ، وملايين القنابل التي يدفع بها الى الميادين بأسراف ؛ ولو أن الحكمة تغلبت على الناس ، واتبعوا نظما أخرى تقوم على السلام والمحبة والمبادلة الحرة ، وأنفقوا هذه الأموال الطائلة في الانشاء والتعمير ، لوجدوا بالأرض معينا من الثروة لا ينضب . فإذا كانت مناجم غرب أوروبا وشرق أمريكا قد استغلت منها كميات كبيرة ، فإن في الصين وغيرها مناجم كثيرة ما زالت بكرًا ، وفي مناطق كثيرة في شمال أفريقيا وغرب آسيا فوسفور وحديد بكميات وفيرة لم تستخرج بعد ، ومساقط الماء تغني عن القوى المستمدة من الفحم ، وما زالت بأفريقيا وآسيا وأستراليا مساحات واسعة من الأرض يمكن إصلاحها وزراعتها أو تهيئتها لرعى المواشى . وهناك مشروعات ضخمة للاستفادة من حرارة الشمس في رمال الصحاري لإدارة الآلات في مصانع تؤسس في تلك الفيافي ، وبذلك يمتد العمران ، وتتسع مساحة الأرض الصالحة للسكنى والاستغلال ، ويمكن عندئذ ، وعلى عكس رأى المتشائمين ، أن تأوى الأرض وتغذى أكثر من سبعمائة ألف مليون نسمة .

ابراهيم زكي

بكالوريوس تجارة واقتصاد

## مذاهب العرب في كلامهم

صدر العصر العباسي

— ٦ —

تغلب أسلوب الأدباء الذي ذكرناه ، وأصبح هو الأسلوب الذي تصدر عنه كتابات الدولة ، وانطبعت صورته في الخطابة والشعر ، وهذه الثلاثة قد اتفقت في أنحاء كثيرة ، وافترت في جهات أدبية وتقليدية مما سنبينه في موضعه ؛ ولا ننسى أن هنالك عوامل قد صملت على تثبيت هذا الأسلوب الأدبي وتقوية أركانه ، مما دفع الرواة والمؤلفون ، وما صنع الأمراء والرؤساء ممن اتخذوا الأدب لهم عدة ؛ وذلك غير ما ترك العرب من تراث اعتز به أبنائهم ، وما خلفه المفكرون من فنون وآثار . غير أن الكتابة ، وقد أفردنا لها مقال اليوم ، قد اختلفت عن الكتابة في عصر بني أمية من جهات ؛ فالخلفاء والأمراء في ذلك العصر كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ، أو يملونه على كتابهم ، فلا يجرون وراء تخير لفظ ، ولا يطلبون دقة معنى ، وإنما كانوا يتركون للسليقة زمامها . أما العصر العباسي فقد اتسعت فيه رقعة الملك ، وتعددت شئونه ، وتنوعت أعماله ومسائله ، فوكل الأمراء أمر الكتابة إلى رجال دولتهم ، فكانوا لا يتناولونها بأيديهم إلا إذا مس الغرض ذواتهم ، كما فعل المنصور في رده على محمد بن الحنفية .

ومن الفروق أن الإيجاز كان يغلب على الكتابة في عصر بني أمية ، ولكنها في عصر العباسيين الأول قد جمت بين الغلو في الإيجاز ، والإفراط في الإطناب ، فكانوا يوجزون إذا تعلق الأمر بتوقيع رئيس أو أمير أو خليفة ؛ وقد حُتِبَ ذلك إلى نفوس بعضهم حتى كان يغلب على كل ما سواه ؛ فقد كتب جعفر بن يحيى إلى عماله : « إذا قدرتم على أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا » ، وكتب إلى عامل له : « قد كثرت شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت » .

ومن قبيل ذلك يقول عمرو بن مسعدة في وصاة له : « كتابي إليك كتاب مَمْنَعِي بمن كتب له ، واثق بمن كتب إليه ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » .

أما الإسهاب فقد كانوا يلتزمونونه في عقد بيعة ، أو منشور سلطان ، أو احتجاج لمذهب ، أو إرشاد لجمهور ، أو وثيقة صلح ، أو وصية أمير . وقد كانوا يكتبون الرسائل المطولة ويقرونها على الجمهور في أيام الأخمسة . وقد حفظ التاريخ من ذلك شيئا كثيرا .

في هذا العصر تنوعت أوائل الكتب وختامها ، بخلاف ما كان عليه الحال في عهد الأمويين ،

فقد كان هؤلاء يقتصرون على القول : من فلان الى فلان ، ويتبعون ذلك بتحميدة ، ثم يهجمون على الغرض في عبارات قليلة موجزة ؛ أما في هذا العصر فقد تعددت الطرق ، وتنوعت الأشكال ، وابتدع الكتاب المقدمات الطويلة ، والتحميدات الكثيرة ، وأفسحوا للغرض حتى ألعبوا وأملوا ؛ وكان أكثر ما يكون ذلك في كتب السلطان والأمراء والرؤساء ، وما اتصل من الجمهور بسبب . وأظهر ما قامت الفروق بين العصرين ، أن الكتابة في العصر الأول كانت جزلة نخمة ، متمشية مع السليقة ، لا تعمل فيها ولا التواء ، مقصورا فيها على الغرض وحده ؛ وأما كتاب العباسيين فقد سهلوا عبارتها ، واختاروا ألفاظها ، وأجادوا رصفها ، ونوعوا معانيها ، وأدقوا خيالها ، وابتدعوا فيها ما لم يعرف الأولون . ولا شك أن هذا كان نظام زمنهم ، وحكم أيامهم ، فشوا معه وخضعوا لأمره .

يجب أن نعرف هنا أن الكتابة بعد الترجمة عن فارس ويونان ، كانت أبلغ في المعنى ، وأدق في الخيال ، واشترك معها في هذا الحظ الشعر والخطابة ، غير أن الكتابة قد انطلقت حرة لا يقيدتها قيد ، ولم يحجزها تقليد لقديم ، إلا ما اشتركت فيه مع طبيعة ما تقدمها من السلامة والإرسال والوضوح وعدم المزاجية ، إلا عند ما يدعو الموقف وتتطلب الحاجة حسن الإفصاح وقوة التأثير ، استنانا بسنة القرآن الكريم . إذن قد وجد كتاب بنى العباس أنفسهم أحرارا ، فكاتبوا ما شاءوا ، وأخذوا منها ما اشتروا ، وسلكوا مسالك نوعوا فيها ما شاء لهم التنويع ، وقد قام في ذلك العصر من يضع لها المعالم ، ويرسم منها الحدود ، معتمدا في ذلك على ما أسس عبد الحميد . ولا شك أن هذه القيود لم تحتبس أحدا ، ولكنها خفت على كثير من القلوب ، وصادفت هوى عند جبهة الكتاب ، فأخذوا بها حتى جاءت كتابتهم في هذه الحقبة من الآيات البينات .

وأول من رفع هذه المعالم وبتن حدودها عبد الله بن المقفع ، معتمدا في ذلك على ما ترك أستاذه ، فكانت البلاغة عنده : « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » . وقال في ذلك : « إياكم وتبع وحشى الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك هو العي الأكبر » . فكان مذهبه السهولة والوضوح ، وقوة النسيج ، وتجنب التعقيد ، ومباعدة الحوشي ، وحسن الصياغة ، حتى يظنها الجاهل في طوع يده ، فإذا ما حاول مثلها تبينه بعيدا . غير أن ابن المقفع قد كتب نخالف وصاته ، وزايل معالمة في أدبيه الكبير والصغير ، وقد غلب على أسلوبه المنطق وعبارة الفلاسفة . أما رسائله الأخوية ، وترجمته كليله ودمنة ، فقد جاءت من الوضوح والبلاغة طبق ما رسم ، ووافق ما وضع ؛ وقد كتب الى صديق له في السلامة : أما بعد ، فقد أناني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قبلك ، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها ولها المنعم المتفضل المحمود ، ونسأله أن يلمنا وإياك من ذكره وشكره ما به مزيدا وتأدية حقها ...

وجاء بعد ذلك بشر بن المعتمر فوضح ما أبهم ابن المقفع ، وفصّل ما أجهل ، وأضاف إلى الكتابة ومقاماتها إضافة دفع فيها صحيفته التي فيها يقول : « إياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراد معنى كريما فليلتزم له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتزم إظهارهما ، وترتهن نفسك بملاستهما ، وقضاء حقهما ، وكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، ونحما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً ، وقرىبا معروفاً ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة وموافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ؛ وكذلك اللفظ العامي والخاصي ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، على أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهاء ، ولا تنجفون عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام » .

فأنت ترى أن مذهب بشر يلتقي ومذهب ابن المقفع في تجنب التوعر ، والابتعاد عن التعقيد ، ويختلف معه في أن الأول أراد أن يكون بيان اللفظ ، ووضوح الغرض عند من كتب الكتاب من أجله ، إلا إذا كان الكاتب في مكان من القدرة بجمله بحيث يفهم العامة ما أراد به الخاصة ، وهذا غير ما أراد ابن المقفع .

وقد جاء الجاحظ بمذهبه فوافق في السهولة والوضوح ، وألزم أن يفهم العامة ما أريد به الخاصة ، ورأى ألا يحجر الكاتب في لفظه كل التحجير ، وألا يدق في معناه كل التدقيق ؛ وأحسن الكلام عنده : « ما كان قليلا يغني عن كثيره ، ومعناه ظاهرا من لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا من الاستكراه ، ومتزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة » . فذهب الجاحظ قد جمع من المذاهب المتقدمة ، وأتى على عدم الغلو في اختيار اللفظ ، والجري وراء المعنى ، وإنما يرسل الكاتب طبعه فلا يتطلب طاصيا ، ولا يكره متأبيا ؛ وقد سلك في كتابته طريقته فكان له فيها معجزات وهنات .

قد يظن بعض الناس أن طريقة الجاحظ سهلة ميسرة ، ولكنهم في ذلك جدواهم ؛ ذلك بأنك إذا حاولته كان عليك أن تخاطب العامة فتسهّل لفظهم ، وتنزل إليهم حتى يفهموك بينما ، وأن ترضى الخاصة فترفع إليهم ، وتحمل في صمائمهم ، فيكون نسجك قويا ، ولفظك

مختاراً ، قد وضعته في موطنه ، حتى سكن واطمأن ، لا قلق ولا اضطراب ، فبدأ الاشرار جليلاً ، والغرض نبيلاً ، واللفظ كريماً ؛ أما إذا كان الخطاب للخاصة وحدهم ، أو للعامة وحدهم ، فإن العبء فيه يكون بعض ما قدمنا .

هذه هي الحالة الأدبية التي غلبت على الكتابة في القرنين الأولين من عصر بني العباس ، قد صورها وخُلد آثارها عمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، والجاحظ ، وابن المقفع ، وأضرابهم مما يذكر لهم بالخير والحمد الكثير ؟

محمد ناصف

## مهرجانه أدبي

لميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم

في كل يوم تتوالى مبرات المليك على شعبه ، وتتجلى أمارات عطفه على رعيته ؛ ولآياديه يد بيضاء في كل عمل خيري ، وتاج ير من صنع يده يتوج به كل مشروع نافع .

وللشعب بحمد الله قلوب تفيض بإجلاله وتبجيله ، ونخفق بحبه والتعلق به ، وتنفض على حركانه لحراسة ذاته وكلاءة الله له ؛ ووراء هذه القلوب السنة يربطها توريد محاسنه ، وذكر مفاخره ، والدعاء له بطول العمر ، وفسحة الاجل .

ولمناسبة عيد ميلاد جلالته السعيد في ( ١١ من فبراير سنة ١٩٤٢ ) تعقد لجنة المهرجان الملكي الأدبية ، بمشيئة الله ، مباراة عكاظية ، يلتقي فيها الكتاب والادباء ، والشعراء والزجالون ، بخطبهم وقصائدهم ، وأزجالهم وأناشيدهم ، كل بما تجود به براعته ، وما تفيض به نفسه ، من إخلاص للمليك المفدى ، وولاء وحب لصاحب العرش المسكين .

وإن ميدان البيان البليغ لمتسع : شباب رائع فتى ، وعقل ألمعي ، وقاب تقي ، وخلق عظيم ، ودين مكين ، قد ضرب أروع الأمثال في رعاية الفقير ، والترفيه عنه ، واحتضانه ، والاختذ بيده .

لنأمن سيرته الحميدة وما كثره المشهوده نبراس يضيء الطريق في ميدان الخطابة والإشاد ، وخير حافظ على تسجيل نفحات البراع ، في كتاب يرفع الى مقام المليك ، وينشر على الملأ ، بعد أن يذاع منه بحفلة دار الأوبرا الملكية ما هو جدير بالتفضيل .

وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحرز قصب السبق في المباراة . والمرجو من يتقدم لهذه الحلبة أن يبعث بما تجود به قريحته الى حضرة الاسناذ محمد عبد الجواد المدرس بمعهد التربية للبنات بالزمالك ، في ميعاد لا يتجاوز آخر يناير الحالي ؟

السكرتير

أمين حمدي فرج

مختاراً ، قد وضعته في موطنه ، حتى سكن واطمأن ، لا قلق ولا اضطراب ، فبدأ الاشرار جليلاً ، والغرض نبيلاً ، واللفظ كريماً ؛ أما إذا كان الخطاب للخاصة وحدهم ، أو للعامة وحدهم ، فإن العبء فيه يكون بعض ما قدمنا .

هذه هي الحالة الأدبية التي غلبت على الكتابة في القرنين الأولين من عصر بني العباس ، قد صورها وخلد آثارها عمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، والجاحظ ، وابن المقفع ، وأضربهم مما يذكر لهم بالغير والحد الكثير ؟

محمد ناصف

## مرجهانه أدبي

لعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم

في كل يوم تتوالى مبرات المليك على شعبه ، وتتجلى آمارات عطفه على رعيته ؛ ولآياديه يد بيضاء في كل عمل خيري ، وتاج بر من صنع يده ينوج به كل مشروع نافع . وللشعب بحمد الله قلوب تفيض بإجلاله وتمجيله ، وتحقق بحبه والتعلق به ، وتنبض على حركانه لحراسة ذاته وكلاءة الله له ؛ ووراء هذه القلوب السنة برطها تزد يد محاسنه ، وذكر مفاخره ، والدعاء له بطول العمر ، وفسحة الأجل .

ولمناسبة عيد ميلاد جلالت السعيد في ( ١١ من فبراير سنة ١٩٤٢ ) تعقد لجنة المهرجان الملكي الأدبية ، بمشيئة الله ، مباراة عكاظية ، يلتقى فيها الكتاب والأدباء ، والشعراء والزجالون ، بخطبهم وقصائدهم ، وأزجالهم وأناشيدهم ، كل بما تجود به براعته ، وما تفيض به نفسه ، من إخلاص للمليك المفدى ، وولاء وحب لصاحب العرش المسكين .

وإن ميدان البيان البليغ لمنسج : شباب رائع فتى ، وعقل ألمع ، وقلب نقي ، وخلق عظيم ، ودين مكين ، قد ضرب أروع الأمثال في رعاية الفقير ، والترفيه عنه ، واحتضانه ، والأخذ بيده .

لنأمن سيرته الحميدة وما آثره المشهودة نبراس يضيء الطريق في ميدان الخطابة والإنشاد ، وخير حافظ على تسجيل نغمت اليراع ، في كتاب يرفع الى مقام المليك ، وينشر على الملأ ، بعد أن يذاع منه بحفلة دار الأوبرا الملكية ما هو جدير بالتفضيل .

وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحرز قصب السبق في المباراة . والمرجو من يتقدم لهذه الحلبة أن يبعث بما تجود به قريحته الى حضرة الاسناد محمد عبد الجواد المدرس بمعهد التربية للبنات بالرمالك ، في ميعاد لا يتجاوز آخر يناير الحالي ؟

السكرتير

أمين حمدي فرج

## رجل

رجلان سقطا في ميدان الجهاد الديني والإصلاح الاسلامي ، ومضيا الى جوار الله بعد أن أديا رسالتهم كعالمين من علماء الاسلام ، فشمع بفداحة الخسارة في فقدما كل مسلم محب لدينه ، حريص على نهوضه ، مقدر لجهود المجاهدين في هذا السبيل . ومن شهد جنازة هذين الرجلين أو اشترك في مأتمهما وقدر له ذلك في غيرها من ذوى الجاه والثروة ، استطاع أن يعرف كم عدد هؤلاء الذين يقدرون جهود العلماء وجهادهم في خدمة الاسلام والمسلمين ، واستطاع أن يعرف أيضا أن تقدير الجاه والنفوذ والثروة قد يفوق الى غير حد تقدير العلم والصلاح والجهاد في خدمة الجماعة . وقد تكون هذه الظاهرة قديمة في الشعوب والجماعات وليست سمة هذا العصر وآية هذا الزمن ، إلا أنها على كل حال توجب الأسف ، وتقف بكثير من العاملين عن مواصلة السعي في خدمة العلم وإصلاح الأمم . وبعض الرجال العاملين قد لا يتنبه كثير من الناس لقيمة خدماتهم ، وعظيم مجهوداتهم ، فإذا وافقهم المنيا ، وطوتهم اللحد ، عرف فضلهم وظهر قدرهم . وقد يكون من هذا الصنف هذان الرجلان اللذان هما موضوع كلمتي . وإني إذ أتحدث عنهما أقصر الحديث على الناحية العامة منهما ، أغنى ناحية جهادهما في سبيل الإصلاح ، وفي خدمة العلم والدين ، فلم تربطني بأحدهما رابطة الصداقة التي تسمح لي بالحديث عنهما من الناحية الخاصة .

أحد الرجلين : المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار . ويظلم الشيخ النجار وينقصه حقه من يحاول أن يلجأ بتاريخه في مقال أو مقالين . فللشيخ رحمه الله تاريخ طويل حافل بمجلائل الأعمال في نصرة الدين وإصلاح حال المسلمين .

ويبتدىء كتاب تاريخه بهذه الصحيفة المشرقة حين غضب عليه ناظر المعارف فنقله من مدرسة عابدين الى مدرسة أسوان ، وهو مدرس حديث العهد بالوظيفة ، إثر اشتراكه في جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية ، فأبت له نفسه الكريمة ، وأبت له غيرته الدينية أن ينفذ أمر النقل ، وأن يضع لواء الجهاد في سبيل الاسلام بعد أن رفعه مخلصا مؤمنا بجهاده ودعوته ؛ فاستقال من وظيفته ، واشتغل محاميا ليكون تطبيق الفكر واللسان . ثم تسلسلت الصحائف في تاريخ الشيخ ، فسافر الى السودان مدرسا بكلية غردون ، ثم عاد الى مصر فعين مدرسا بمدرسة البوليس والادارة بعد فترة قصيرة قضاه في الاشتغال بالمحاماة ، ثم تقلد مدرسا بمدرسة دار العلوم ، الى أن أحيل الى المعاش . ثم اختير ناظرا للمدرسة عثمان باشا ماهر ، ونذب مدرسا

بكلية أصول الدين . وهو في جميع هذه الوظائف كان الداعي الى الدين بالبرهان الساطع ، والبيان الناصع ، الواقف لأعدائه بالمرصاد ، يرد كيدهم ويبطل سعيهم . وقلما وُجد منبر من منابر الدعوة الإسلامية إلا كان الشيخ من أبطاله . وأبرز ما في تاريخ الشيخ اشتراكه في جمعية الشبان المسلمين ، ونموضه بجزء عظيم من عملها العلمي والإداري عضواً فوكيلاً ، ثم سفره الى الهند في بعثة أزهرية لدراسة أحوال المسلمين وغيرهم هناك ، وتمكين الروابط بين مسلمي الهند وإخوانهم المصريين . وتقرير هذه البعثة من أحسن ما كتب عن أحوال مسلمي الهند وطوائفهم . وللشيخ في التأليف العلمي آثار قيمة : فله كتاب « قصص الأنبياء » وهو كتاب استقصى فيه قصص الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن وغيره ، وجرده مما علق بها من ضلالات وأوهام . وله كتاب « تاريخ الخلفاء الراشدين » . وله غيرهما آثار دينية وأدبية وتاريخية ، حفلت بها المجلات والصحف طول حياته ، رحمه الله .

وثاني الرجلين : المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجزيري . وللشيخ رحمه الله تاريخ موجز إلا أنه بعيد الأثر في الإصلاح الديني والتهديب العلمي . فقد كان مما اضطلع به وظيفة التفتيش على الأئمة والخطباء بمساجد الأوقاف ، في عهد ساءت فيه حال الخطابة الدينية بالمساجد ، وشكا الناس من طريقة إلقاءها ، وضيق موضوعاتها ، التي كانت تدور غالباً حول النهي عن السرقة وشهادة الزور وتحريم الربا وشرب الخمر . فزال الشيخ يلاحظ ويرشد حتى استطاع أن يخرج الخطابة عن هذا المحيط الضيق ، ويجعلها تلهم حياة الناس وما يجري بينهم ، مما ينفع الحياة ويبعد من الله . ثم أحيل الى المعاش فانتدبته كلية أصول الدين مدرسا بها تقديراً لعلمه وفضله . وقد استطاع أحد تلاميذه ، وهم كثير ، أن يتحدث عن كفاية الشيخ وإخلاصه وإتقانه لعمله . وللشيخ في ناحية التأليف العلمي امتياز خاص . فقد كان كثير الإنتاج في تحقيق وتدقيق . ومن يقرأ « كتاب الفقه على المذاهب الأربعة » وهو في أربعة مجلدات ، يعجب لمواهب الشيخ في هذا الباب ، ويدهش كيف واتته القرصة على أن يقرأ الفقه في المذاهب الأربعة ثم يجمع ويهذب ويكتب . وللشيخ غير هذا الكتاب كتب كثيرة ، منها « أدلة اليقين » ، « وتوضيح العقائد » ، و « الأخلاق » . وهذا عدما للشيخ من مقالات نشرت في مناسباتها بالصحف والمجلات .

تلك هي كلمتي عن الشيخين ، وهي إلمامة عجلى بتاريخهما ، دفعني الى كتابتها تقديري لجهادهما وعلمهما وفضلهما ، واخترت أن تنشرها مجلة الأزهر لأن لها عليها حقاً ، فقد كانا من أفاضل محرريها وأخلص خدامها ، ولا أظنها تبخل بالوفاء ؟ أبو الوفا المرافعي